النبراس

في

تاريخ خلفاء بني العباس

لابن دحية

دراسة وتقديم وتحقيق وتعليق

مديحة الشرقاوي

الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

obeikandl.com

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

مكتبة الثقافة الدينية

obeikandl.com

الإهداء

أهدى هذا العمل إلى أستاذى ومعلمى المرحوم الأستاذ الدكتور حسين مؤنس تحية وتقدير وعرفنا بالجميل.

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق البشر الصادق الأمين محمد بن عبدالله وعلى اله وصحبه ومن تبع الهدى وبعد.

التاريخ مرأة الشعوب فهو ماضى وحاضر ومستقبل الأمة فلهذا لكل أمة وكل شعب يفتخر بتاريخه على مر العصور وخاصة الشعوب العربية.

وقدقمت اثناء فحصى فى المصادر والمراجع التى تختص بأمور آمتنا فوجدت كتاباً هاماً من كتب التراث الهامة وهو «النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس» لابن دحية الكلبى الذى أثرى المكتبة العربية ببعض مصنفاته ومؤلفاته، وصاحب هذا العمل هو عمر بن الحسن بن على بن محمد أبو الخطاب ابن دحية الكلبى أديب مؤرخ، حافظ للحديث من أهل بلنسية بالأندلس، ولى قضاء دانية، ورحل إلى مراكش والشام والعراق وخراسان، واستقر بمصر، وكان كثير الوقيعة فى العلماء والأئمة فأعرض بعض معاصريه عن كلاهه، وكذبوه فى انتسابه إلى «دحية» وقالوا: إن دحية الكلبى لم يعقب وهجاء الشاعر ابن عنين، ولد سنة ٥٤٤هـ/ ١١٥٠م ومات ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م بالقاهرة، من تصانيفه «المطرب من أشعار أهل المغرب» و«الآيات البينات» و«نهاية السول فى خصائص الرسول» و«التنوير فى مولد السراج المنير» و«تنبيه البصائر فى اسماء الخمر» و«علم النصر المبين فى المفاضلة بين أهل صفين».

وكتاب «النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس» من المصادر التاريخية الهامة التى تتحدث عن الخلفاء العباسيين باراء وأعمال جديدة، وأسال الله العون والمغفرة يا أرحم الراحمين والله ولى التوفيق.

القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م

مديحة الشرقاوى

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مالك الملك ومؤتيه ومنتزعه ممن يشاء ومفنيه، ومعز من يشاء من عباده ومدنيه، ومذل من يشاء منهم ومقصيه، الملك الحق فى الدنيا والآخرة يوم تخشاه الملوك وترتجيه، المتفرد برداء الكبرياء، الذى يقصم من نازعه رداءه أو يدعيه، المخصوص بالعظمة التى هى فوق كل عظمة على ما يقتضيه رب العزة التى حسام سلطانها سابق من ينتضيه، ذى الجلال والاكرام، الذى أجرى المالك والمملوك على مايقدره فيهما ويقضيه، والصلاة على سيد ولد آدم محمد أمينه على وحيه ومؤديه، المنتهض بأمر الله العظيم وموفيه، والقائم بما يظهر الله به الدين القيم ويعليه، الذى آتاه الله الكتاب والحكمة والملك العظيم وإرثا جده إبراهيم إذ هو سيد نبيه، وجعل الخلافة فى أهل بيته وهم خلائف الأرض فيما ينتصر الدين ويحميه، صاحب المقام المحمود يوم يكون كل أحد مرتهناً بما فيه، وصاحب الحوض المورود يوم تدنى الشمس من الخلق ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه، صلى الله عليه صلاة تيسر المزيد لصاحبها وتسنيه، وعلى آله وصحبه السارعين إلى ما يؤثره ويرضيه.

أما بعد فإن المقام المولوىّ الأجلىّ السلطانى الملكى الكاملى سلطان الإسلام والمسلمين ناصر الدنيا والدين، عزّ الملوك والسلاطين، ولى العهد الذى لم تزل مخايل الملك لائحة بين عينيه مذ كان فى المهد ظهير أمير المؤمنين، السامى الجناب الهامى الرباب، المتبلجة صفحات مجده، المتأرجحة نفحات حمده، المتجاوز مناط الجوزاء المجرر على المجرة أذيال السمو والعلاء، أبا المظفر محمد (١) ابن مولانا السلطان الأعظم الذى خضعت لعظمته الأملاك، وكان به القوام والملاك الملك العادل، المحامى عن الدين والمناضل، المجاهد المرابط سيف الدنيا والدين، خليل أمير المؤمنين أبى بكر محمد ابن الصيد الأجل ملك الأمراء وأبى الملوك العظماء نجم الدين ذى المروءة المرضية، والسيرة الرضية أبى منصور أيوب بن شاذى خلد الله سلطانه، وأوضح بين الملوك برهانه، وخفض شانيه ورفع شأنه، ومكنه فى الأرض

(١) سقطت من الناسخ

وأسمى فى السماء مكانه، سألنى إملاء كتاب فى التأريخ يصغر جرمه، ويكثر علمه، إذ بالتاريخ تعرف المناقب والمفاخر ويدك العلم الأول والآخرة.

فكل علم فى التاريخ يستنبط وحسبه ذا الفخر فقط، إذ أوله بدء المخلوقات وخلق الأرضين والسموات، ومعرفة السابق منهما واللاحق، وتقدير الأقوات للناطق وغير الناطق، ومعرفة عدد الأيام التى تختص منها بكل مخلوق، والأزمان المخصوصة بالسابق فى الخلق والمسبوق، فلولا التأريخ ما عرف أن الأرض قبل السماء مخلوقة، ولا أن الأرض فى بدء الخلق سابقة والسماء مسبوقة، ولا عرف أن خلقهما كان فى ستة أيام، وخلق فيها مبادئ وموجودات ساير الأنام، وأن هذه الأيام بينهما فى الخلق متوزعة، وعلى تقدير المخلوقات والأقوات متنوعة، فاختصت الأرض فى الخلق والدحو وإخراج المرعى وإرساء الجبال بأربعة أيام والسماء بيومين، على ما فسره ابن عباس للكتاب العزيز بلا ريب فيه ولا مين.

وكذلك لولاه ما عرفت أوقات الرسل وأزمانهم ومواضعهم التى دعوا فيها إلى الله تعالى وأوطانهم وشرائعهم المخصوصة بكل منهم وأديانهم، والعقوبات الحالة بمن خالفهم من الطغاة، والساعات التى حل فيها العذاب بالعصاة. و فيه من التبحر فى علم الحديث والرسوخ، ومعرفة الناسخ فيه من المنسوخ، والتعديل والتجريح، والحديث المعلّ والصحيح، والمواليد والوفيات، والمحيا والممات.

ثم الفقه منه فى الاتفاق والاختلاف يستشار، والفصاحة فيه من الألسنة تستثار، وأصحاب القياس عليه يبنون، وأصحاب المقالات به يحتجون، وثمار معرفة الناس منه تختطر، ودرر أمثال الحكماء منه تلتقط و مكارم الأخلاق ومعاليها منه تقتبس، وأدب سياسة الملوك، وحيل الحروب منه تلتمس وكل غريبة منه تعرف و من بحره تغرف، وكل أعجوبة منه تستطرف. وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل، ويستعذب موقعه العاقل والغافل، ويأنس الخاصى والعامى بموردة من مكانه، ويرتع العربى والعجمى فى رياض بيانه، وبه يستدل على فعل الله جلّ وعزّ بالأمم السوالف، ويجرى بذلك اعتبار الخالف بالسالف، ويوصل به كل كلام، ويدخل فى كل مقام، ويتجمل به فى كل محفل وناد، وحاضر وباد.

ففضيلته فى العلوم صحيحة بينة، وله على فضله شهود بينة، وكفاه أنه أسّ معرفة أخبار رسول الله ﷺ وقاعدة أصلها ومكانها وما لا يكاد محدث يستغنى عنه فى بعض علومه بل فى كلها.

وقد كان تقدم لى فى التأريخ تواليف كثيرة، ومصنفات مأثورة وأثيرة، فاقتصرت الآن على تأريخ خلفاء بنى العباس، أولى الأصل الشامخ الفرع الثابت الأساس، ففيها كفاية، وهى اللباب وغيرها نفاية فذكرها أجدى من كل مطلوب، وأندى على النفوس والقلوب من قوم ينتمون إلى أكرم المناصب والمناسب يحيون بالريحان يوم السباسب(١).

وقد نطق بخلافة أهل البيت القرآن العظيم، فى قول الله وهو العزيز الحكيم، يخاطب نبيه محمداً عليه الصلاة والتسليم، ومعرضا بقومه وأهل بيته الذين لهم الحسب الصميم، والشرف القويم، حيث قال: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ﴾(٢) ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٣).

والحكمة فى ذلك أن يذكر بذكرهم نبيه وصفيه وعبده، محمد العربى القرشى الكريم، فأصبح ذكرهم تاج الأذكار، وأمسى سراج الأذكار، فرفعت بأسمائهم المنابر، وترفرت على صفاتهم الأقلام والمحابر، وكانوا بالإمامة أظهر البنين، وقاربت مدة الخلافة فيهم خمسمائة من السنين.

فأتيت بالخبر من فصه، وبالحديث على نصه، أنظم تارة وانثر، وأمر هوناً فى حديثهم ولا أعثر، وذلك على الايجاز والاختصار، وأصرف إلى ذكر آبائهم دون أمهاتهم عنان الاقتصار، رغبة فى ذكر الرجال عن النساء، مع أن أكثرهم من الإماء فذكرالرجال أليق بشرفهم فى النجوى (ادعوهم لآبائهم هو أقرب للتقوى).

وكذلك الدعاء بالآباء يوم القيامة، على ما ثبت فى الصحيحين عن نبىّ الهدى والكرامة، والحديث فى دعاء الناس بالأمهات من الموضوعات، ترجم البخارى فى صحيحه فى كتاب الأدب:

---

(١) يوم السباسب هو يوم الشعانين عيد لملوك العجم يعرف بالنيروز والمهربان (من هامش الأصل).
(٢) خلائف جمع خليفة وخليف جمع خلفاء، والمصدر الخلافة والخليفى (من هامش الأصل) .
(٣) ١٦٥ك الأنعام ٦.

باب: يدعى الناس بآبائهم. حدثنا مسدد [1]، قال:حدثنا يحيى[2]عن عبد الله[3] عن نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ، قال: إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان، وفى رواية منه (يرفع)، وقد رواه القعنبى عن مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر ومثله سواء.

وأخرجه مسلم [4] فى صحيحه فى كتاب القضاء بأسانيد منها. قال: وحدثنا محمد بن عبد الله بن محمد واللفظ له، قال: حدثنا أبى قال: حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواءً فقيل هذه غدرة فلان ابن فلان فهو حديث صحيح باتفاق العلماء، وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل غادر لواء عند استه يوم القيمة» [5].

---

(١)هو مسدد بن مسرهد بن مسربل الأسدى أبو الحسن البصرى الحافظ روى عن ابن عيينة وفضيل بن عياض ويحيى القطان وخلق ، وعنه البخارى وأبو داود .والجوزجانى ويعقوب بن شيبة وآخرون ، وصنف المسند ، مات سنة٢٢٨ هـ

انظر تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٢١ ، تهذيب التهذيب ١١/ ١٠٧ ، خلاصة تذهيب الكمال ٣٤٠ ، الرسالة المستطرفة ٦٢ ، شذرات الذهب ٢/ ٦٦، العبر ١/ ٤٠٤

(٢) هو يحيى بن سعيد القطان التميمى أبو سعيد البصرى الأحول الحافظ أحد الأئمة روى عن جعفر الصادق ومالك وحميد الطويل وخلق ، وعنه أحمد وابن المدينى وخلق ، قال أحمد : لم يكن فى زمانه مثله، وقال أبو زرعة : من الثقات الحفاظ مات سنة ١٩٨ هـ .

انظر العبر ١/ ٣٢٧ ، شذرات الذهب ١/ ٣٥٥ ، خلاصة تذهيب الكمال ٣٦٣، تهذيب التهذيب ١١/ ٢١٦ ، تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ١٥٤ ، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٩٨ ، تاريخ بغداد ١٤/ ١٣٥.

(٣) هو عبد الله بن دينار القرشى العدوى أبو عبد الرحمن المدنى مولى عبد الله بن عمر روى عن مولاه وأنس ، وعنه الثورى وابن عيينة وشعبة ، قال ابن سعد: ثقة كثير الحديث مات ١٢٧ هـ .

انظر : خلاصة تذهيب الكمال ١٦٦ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١٢٥ تهذيب التهذيب ٥/ ٢٠١.

(٤) وهو غنى عن التعريف .

(٥) ورد فى صحيح مسلم ٢/ ٤٧

أول الخلفاء
أبو العباس عبد الله(*)

ابن الأمير السيد الشريف الإمام العادل المحدث أبى عبد الله أبى إبراهيم محمد(١) وكان إماماً عالماً محدثاً عدلاً حدث عنه من الأئمة جماعة منهم هشام بن عروة بن الزبير(٢)، وذكره الدارقطنى فيمن انفرد به مسلم فى صحيحه، وقال الحاكم: وهو ممن اتفق عليه والصواب ما وافقه عليه الإمام أبو الحسن الدارقطنى ابن الأمير السيد الشريف الإمام أبى محمد فى قول الزبير ابن بكار(٣) وأبى عبد الله فى

(*) انظر التفاصيل : الإمامة والسياسة ٢/ ١١٨ ، الأنباء فى تاريخ الخلفاء ٦١، البدء والتاريخ ٦/ ٨٨-٩٠ ، البداية والنهاية ١٠/ ٥٨-٦١ ، تاريخ بغداد ١٠/ ٤٦-٥٣، تاريخ الخلفاء ٢٧٩-٢٨٤، تاريخ خليفة بن خياط ٤٣٤، تاريخ الطبرى ٧/ ٤٧٠/ -٤٧١،تاريخ مختصر الدول ١٢٠، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٣٤٩-٣٦٣، تتمة المختصر ١/ ٢٨٦-٢٩١، الكامل ٤/ ٣٤٦.

(١) هو على بن محمد بن عبد الله أبو الحسن المدائنى راوية مؤرخ كثير التصانيف من أهل البصرة ، سكن المدائن ، ثم انتقل إلى بغداد ، ولد سنة ١٣٥هـ / ٧٥٢م ومات سنة ٢٢٥ هـ / ٨٤٠م، أورد ابن النديم أسماء نيف ومائتى كتاب من مصنفاته فى المغازى والسيرة النبوية وأخبار النساء وتاريخ الخلفاء وتاريخ الوقائع والفتوح والجاهلين والشعراء والبلدان ، قال ابن تغرى بردى : وتاريخه أحسن التواريخ وعنه أخذ الناس تواريخهم ، بقى من كتبه : «المردفات من قريش » «والتعازى» .
انظر الفهرست ١٠٠-١٠٤،تاريخ بغداد ١٢/ ٥٤ ، إرشاد الأريب ٥/ ٣٠٩.

(٢)هو هشام بن عروة بن الزبير بن العوام الأسدى المدنى ، روى عن أبيه وعمه عبد الله ابن الزبير وطائفة ، وعنه أبو حنيفة ومالك وشعبة والسفيانان والحمادان وخلق ، قال ابن المدينى : له نحو أربعمائة حديث وقال ابن سعد :" كان ثقة ثبتاً كثير الحديث حجة ، مات سنة ١٤٥ هـ .
انظر : تاريخ بغداد١٤/ ٣٧ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١٤٤ ، تهذيب التهذيب ١١/ ٤٨ ، خلاصة تذهيب الكمال ٣٥٢ ، شذرات الذهب ١/ ٢١٨ ، العبر ١/ ٢٠٦ ، مرآة الجنان ١/ ٣٠٢ ، ميزان الأعتدال ٤/ ٣٠١ ، النجوم الزاهرة ٢/ ٦، وفيات الأعيان ٢/ ١٩٤ .

(٣) هو الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى الزبيرى أبو عبد الله بن أبى بكر المدنى قاضى مكة. روى عن إبراهيم بن المنذر الحزامى وإسماعيل بن أويس وأبى ضمرة أنس بن عياض وابن عيينه ، وعنه ابن ماجه وثعلب النحوى والحسن بن إسماعيل المحاملى وابن أبى الدنيا وآخرون، ألف كتاب «السنن» وكتاب «أخبار المدينة» ، كان ثقة ثبتاً عالماً بالنسب ، عارفاً بأخبار المتقدمين ومآثر الماضيين ، مات سنة ٢٥٦ هـ .
انظر : وفيات الأعيان ١/ ١٨٩، مرآة الجنان ٢/ ١٧٦،اللباب٢/ ٥١، العبر٢/ ٢٩، طبقات ابن هداية الله٢٩ ، طبقات القراء لابن الجزرى ٢/ ٤٠٦، طبقات الفقهاء ٩٩ طبقات السبكى ٢/ ١٧٠، شذرات الذهب ٢/ ١٣٢ ، ميزان الأعتدال ٢/ ٦٦، تاريخ بغداد ٨/ ٤٦٧، تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٢٨.

قول الهيثم بن عدى [1]، ولد ليلة قتل علىّ ابن أبى طالب [2] رضى الله عنه فى شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة (٦٦١م)[3] فسمى باسمه[4] وكان أصغر ولد عبد الله سناً وكان إماماًعالماً محدثاً زاهداً فى الدنيا راغباً فى الآخرة يسجد كل يوم ألف سجدة أسند ذلك من طرق الإمام الحافظ أبو نعيم فى كتاب الحلية له[5].

وحدثنا جماعة من شيوخنا - رحمهم الله - عن الثقة أبى على الحداد[6] قال: سمعت الحافظ أبا نعيم[7] يقول: حدثنا أحمد بن محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن إسحق الثقفى قال: حدثنا محمدبن زكريا قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن التميمى قال: حدثنى أبى عن هشام بن سليمان المخزومى أن على بن عبد الله ابن العباس كان إذا قدم مكة حاجاً أو معتمراً عطلت قريش مجالسها فى المسجد الحرام وهجرت مواضع حلقها ولزمت مجلس على بن عبد الله إعظاما وإجلالا

(١) انظر: طبقات الحفاظ للسيوطى.

(٢) هو أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أبو الحسن الهاشمى قاضى الأمة وفارس الإسلام جاهد فى الله حق جهاده ، ونهض بأعباء العلم والعمل ، استشهد فى شهر رمضان سنة ٤٠هـ وله ٦٠ عاما. انظر : أسد الغابة ٤/ ٩١ ، الاصابة ٢/ ٥٠١ ، تاريخ بغداد ١/ ١٣٣ ، تاريخ الخلفاء ١٦٦، تذكرة الحفاظ ١/ ١٠ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٣٢ ، شذرات ١/ ٤٩ ، طبقات الفقهاء ٤١، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٥٤٦، طبقات القراء للذهبى ١/ ٣٠ ، العبر ١/ ٤٦ ، مروج الذهب ٢/ ٣٥٨ ، النجوم الزاهرة ١/ ١١٩.

(٣)ذكرت ما يقابل السنين الهجرية من السنين الميلادية بين قوسين .

(٤) أفرده المدائنى بالتأليف أيضا كما فى الفهرست لابن النديم ١٤٨ .

(٥)كتاب حلية الأولياء لأبى نعيم طبعه بمصر فى مطبعة السعادة ، ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م بنفقة مكتبة الخانجى ومطبعة السعادة.

(٦) انظر التفاصيل فى تذكرة الحفاظ للذهبى

(٧) هو الحافظ الكبير محدث العصر أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى ابن مهران المهرانى الأصبهانى الصوفى الأحول سبط الزاهد محمد بن يوسف البناء ، ولد سنة ٣٣٦ هـ ومات سنة ٤٣٠هـ ، صنف الحلية والمستخرج على البخارى والمستخرج على مسلم ودلائل النبوة ومعرفة الصحابة وتاريخ أصبهان و فضائل الصحابة و صفة الجنة و الطب وغيرها .
انظر : البداية والنهاية ١٢/ ٤٥ ، تبيين كذب المفترى٢٤٦، تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٩٢ ، شذرات الذهب ٣/ ٢٤٥ ، طبقات السبكى ٤/ ١٨ ، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٧١، طبقات ابن هداية الله ١٤١، العبر ٣/ ١٧٠،لسان الميزان ١/ ٢٠١، معجم البلدان ١/ ٢٩٨، المنتظم ٨/ ١٠٠ ، ميزان الأعتدال ١/ ١١١ ، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٠ ، وفيات الأعيان ١/ ٢٦

وتبجيلا، فإن قعد قعدوا، وإن نهض نهضوا، وإن مشى مشوا جميعا حوله، وكان لا يرى لقرشى فى المسجد الحرام مجلس يجتمع إليه فيه حتى يخرج على بن عبد الله من الحرم.

وروى عنه جماعة من التابعين منهم، الزهرى(١)، وسعد بن إبراهيم ومنصور بن المعتمر وعبد الله بن أبى بكر والمنهال بن عمرو، وحدث عنه أولاده محمد وداود وعيسى وسليمان وصالح.

أسند عامة حديثه عن أبيه الإمام عبد الله بن العباس رضى الله عنه وهو الإمام أبو العباس عبد الله بن العباس (٢) بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن

(١) هو الزهرى أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب المدنى أحد أعلام، نزل الشام وروى عن سهل بن سعد وابن عمر وجابر وأنس وغيرهم من الصحابة وخلق من التابعين، وعنه أبو حنيفة ومالك وعطاء بن أبى رباح وعمر بن عبد العزيز وهما من شيوخه وابن عيينة والليث والأوزاعى وابن جريج، ثقة مات سنة ١٢٤ هـ

انظر : تذكرة الحفاظ ١/ ١٠٨، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٤٥، حلية الأولياء ٣/ ٣٦٠، خلاصة تذهيب الكمال ٣٠٦، شذرات الذهب ١/ ١٦٢، طبقات الفقهاء ٦٣، طبقات القراء لابن الجزرى ٢/ ٢٦٢، العبر ١/ ١٥٨، النجوم الزاهرة ١/ ٢٩٤، وفيات الأعيان ١/ ٤٥١.

(٢) العباس بن عبد المطلب عن النبى ﷺ جاءت كتب عديدة فى مناقبه :

١-كتاب ابن أبى الدنيا

٢-كتاب الحسين بن المظفر

٣-كتاب أبى القاسم حمزة بن يوسف السهمى

٤- مناقب العباس لأبى طاهر السلفى

٥- كتاب أبى القاسم إسماعيل بن أحمد السمرقندى المسمى (فضائل العباس) وهذا خرج منه أبو منصور بن على الجربادقانى (عروس الأجزاء رأيته فى مجموعة رقم ١٧ من قسم الحديث فى الخزانة الظاهرية).

٦- الايناس فى مناقب العباس لابن الساعى

٧- الايناس لابن حجر

٨- عمدة الناس فى مناقب العباس للسخاوى صاحب الضوء اللامع ومنه نسخة فى فهرس دار الكتب المصرية (ج ٥ص٢٧٢)،وفى رجال الحديث قد تكرر ذكر ترجمته وفى الموجود من الآثار ما يعين مكانته، والمؤلف لم يتعرض لتفصيل حياته، وإن من أقدم من كتب فى حياته المدايني ذكره فى الفهرس ص ١٤٨ ولشهام الكلبى أخبار العباس فى فهرس ابن النديم أيضا ص ١٤٠ .

كلاب الهاشمى ابن عم رسول الله ﷺ والملازم له وخالته ميمونة بنت الحارث الهلالية تحته فكان يلج بيته ويبيت من أجل ذلك فيه معه، وتعلم منه صلاة الليل، وكيف يسمع المنفرد مع الإمام فإنه قام عن يسار رسول الله ﷺ فتفتل اذنه واداره عن يمينه.

وفيه من الفقه أن العمل القليل فى الصلاة لا يبطلها وانما حوله من وراء ظهره لأنه ﷺ كان فى الصلاة فلو حوله إلى الشق الأيمن من بين يديه لكان ماراً بين يدى المصلى وذلك منهى عنه.

ودعا له رسول الله ﷺ لما جعل له وضوءاً حين دخل الخلاء فقال «اللهم فقهه فى الدين» هكذا فى صحيح البخارى (١) فى كتاب الوضوء فى باب وضع الماء عند الخلاء، وفى صحيح مسلم مثله ذكره فى المناقب فى فضائل عبد الله بن عباس اللهم فقهه فى الدين (٢)، وقال رسول الله ﷺ: اللهم علمه الكتاب، ترجم عليه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة والكتاب القرآن العظيم بإجماع من الصحابة الكرام فكان أعلم الناس به.

وكذلك دعا له رسول الله ﷺ فقال: الله «اللهم علمه الحكمة ذكره البخارى فى صحيحه فى المناقب والحكمة السنة قال الله العظيم مخاطبا لأزواج نبيه عليه الصلاة والتسليم، «واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة».

قال مجاهد: كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه. وقال عطاء بن أبى رباح: ما

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفى مولاهم البخارى الحافظ العلم صاحب الصحيح وإمام هذا الشأن والمعول على صحيحه فى أقطار البلدان، روى عن الإمام أحمد وإبراهيم بن المنذر وابن المدينى وآدم بن أبى إياس وقتيبة وخلق، وعنه مسلم والترمذى وإبراهيم الحربى وابن أبى الدنيا وأبو حاتم المحاملى والفربرى والنسفى، له عدة مصنفات منها «الجامع الصحيح» و«التاريخ الكبير» و« الأدب المفرد» و«القراءة خلف الإمام» انظر : البداية والنهاية ١١/ ٢٤، تاريخ بغداد ٢/ ٤، تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٥٥،تهذيب التهذيب ٩/ ٤٧، شذرات الذهب، ٢/ ١٣٤، طبقات الحنابلة ١/ ٢٧١، طبقات السبكى ٢/ ٢١٢، طبقات المفسرين للداودى ٢/ ١٠٠٠، العبر ٢/ ١٢، الفهرست ٥٢١، مفتاح السعادة ٢/ ١٣٠، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٥، هدية العارفين ٢/ ١٦، الوافى بالوفيات ٢/ ٢٠٦، وفيات الأعيان ١/ ٤٥٥.

(٢) ورد فى صحيح مسلم ٢/ ٢٥٧ طبعة بولاق سنة ١٢٩٠هـ.

رأيت مجلسا أكرم من مجلس ابن عباس أكثر فقهاً وأعظم جفنة وإن أصحاب القرآن عنده وأصحاب الفقه عنده وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم فى واد واسع.

قال ذو النسبين أيده الله وصفه بالعلم والكرم فإنهم كانوا يسمون الرجل الكريم جفنة، وهو أحد أئمة الصحابة فى تعديل المحدثين وتجريحهم على ما ثبت عنه فى مقدمة صحيح مسلم.

وكان شجاعاً حضر مع على رضى الله عنه الجمل [1] وصفين وقاتل فيهما قتالاً شديداً، ولد بالشعب أيام حصار قريش لرسول الله ﷺ ولبنى هاشم، وبنى المطلب وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين فحنكه رسول الله ﷺ بريقه المقدس وأزجاه لا نعلم أحداً حنك بريق النبوة غيره أسنده الطبرانى، قلت فلزيادة علمه وفهمه يرجع إليه كبار الصحابة رضى الله عنهم فى عضل المسائل، ومشكلات الحوادث كعمر بن الخطاب [2] رضى الله عنه فى علمه وفضله فمن دونه، وهو الذى حفظ قصيدة عمر ابن أبى ربيعة من سمعة واحدة:

أمن آل نعم أنت غادٍ فمبكر غداة غدٍ أم رائحم فمهجر؟

وكان زاهداً فى الدنيا، راغباً فى الآخرة، سئل الخلافة فامتنع منها، وكان أجمع الناس لشروط الخلافة لكنه صدف عنها، وأثنى على ابن الزبير، وذكر حسبه من جميع الأطراف من جد وهو الصديق صاحب الغار وجدة وهى عمة رسول الله ﷺ صفية بنت عبد المطلب وأب وهو حوارى النبى ﷺ وهى أسماء ذات النطاقين وخالة

(١) انظر: معجم البلدان لياقوت الحموى

(٢) هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أبو حفص العدوى الفاروق وزير رسول الله ﷺ ومن أيد الله به الإسلام وفتح به الأمصار وهو الصادق المحدث الملهم وهو الذى سن للمحدثين التثبت فى النقل، وربما كان يتوقف فى خبر الواحد إذا ارتاب . استشهد سنة ٢٣هـ وعاش ٦٠ عاما .

انظر: النجوم الزاهرة ١/ ٧٨، مروج الذهب ٢/ ٣١٢، العبر ١/ ٢٧، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٥٩١، طبقات الفقهاء ٣٨، شذرات الذهب ١/ ٣٣، خلاصة تذهيب الكمال ٢٣٩، أسد الغابة ٤/ ١٤٥، الاصابة ٢/ ٥١١، تاريخ الخلفاء ١٠٨، تذكرة الحفاظ ١/ ٥.

وهى أم المؤمنين عائشة [1] ثم عفيف فى الإسلام، قارئ للقرآن على ما ذكره البخارى فى صحيحه فى التفسير فى باب قوله تعالى ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾[2] ثم باعيه على رغم كثير من المهاجرين والأنصار، فجزاه جزاء سنمار، فأخرجه من مكة موضع رياسة أبيه وجده، وأبعده عنه وبئس ما صنع فى بعده، فاجتمع عليه آلاف من طلبة العلم والحسب من قريش وسادات العرب فخاف منه ابن الزبير فبعث إليه قاضيه أبا بكر وقيل يكنى أبا محمد عبد الله بن أبى مليكة [3] القرشى التيمى فقال له فيما حكاه البخارى أيضاً فى صحيحه منفرداً به أتريد أن تقاتل ابن الزبير فتحل، حرم الله فقال: «معاذ الله إن الله كتب ابن الزبير وبنى أمية محلين وإنى والله لا أحله أبدا» الأثر إلى آخره، ومات بالطائف سنة ثمان وستين (٦٨٧م)، وقيل سنة سبعين وهو ابن

---

(١) هى أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق، كان فقهاء أصحاب رسول الله ﷺ يرجعون إليها، تفقه بها جماعة، يروى عن أبى موسى الاشعرى قال : ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً ، ماتت سنة ٥٧هـ

انظر : الاصابة ٤/ ٣٤٨، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٧، شذرات الذهب ١/ ٦١، طبقات ابن سعد ٨/ ٣٩، طبقات الفقهاء ٤٧، العبر ١/ ٦٢، النجوم الزاهرة ١/ ١٥٠

(٢) سورة التوبة الأية ٤٠

(٣) له ترجمة وافية فى تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى.

وجاءت مناقب ابن عباس مفردة أو مقروءة بالطائف فى مؤلفات منها :

١- بهجة المهج فى فضائل الطائف ووج للشيخ أحمد بن على العبدرى الميروفى المالكى كتب سنة ١٠٧٩ هـ وفيه مسائل فضائل ابن عباس .

٢-تحفة الطائف بفضائل الحبر ابن عباس ووج الطائف . الشيخ محمد جار الله بن عبد العزيز بن عمر بن فهد المكى الهاشمى الشافعى، زار الطائف سنة ٩١٥هـ فكتب هذا الكتاب ٣- كتاب رفع الألباس فى فضائل سيدنا عبد الله بن عباس للحافظ عبدالله بن عبد العزيز ابن عبد القوى الهروى وهو دون الكراس .

٤- استيناس الناس فى فضائل ابن عباس . تأليف ملا على القارى لامنوفى فى شوال سنة ١٠١٤هـ منه نسخه فى دار الكتب المصرية

٥- إهداء اللطائف من أخبار الطائف .

٦- نشر اللطائف فى قطر الطائف، وفيه بيان مناقب ابن عباس وابن الحنفية منه نسخة فى دار الكتب المصرية.

٧- كتاب عبدالله بن العباس للمدائنى المتوفى سنة ٢١٥ هـ وهو من أقدم من كتب . ذكره فى الفهرس لابن النديم ص ١٤٨

سبعين سنة وقيل إحدى وسبعين وقيل ابن أربع وسبعين وصلى عليه ابن عمه السيد الشريف الإمام العالم أبو القاسم محمد بن الحنفية (١) وكبر عليه أربعا وقال: «اليوم مات ربانيّ هذه الأمة» وضرب على قبره فسطاطا.

وقال ذو النسبين أيده الله: أصل الفسطاط عمود الخباء الذى يقوم عليه وفيه لغات ضم الفاء وكسرها وفسطاط بالطاء وفستاط بالتاء مكان الطاء الأولى وفساط بالسين من غير طاء ولا تاء والسين مثقلة. إنما كبَّر عليه أربعاً على مذهب بحر العلم عبد الله بن عباس وهو مذهب كاتب الوحى لرسول الله ﷺ زيد بن ثابت (٢) وأحفظ أصحاب رسول الله ﷺ أبى هريرة (٣) وحجتهم أن رسول الله ﷺ نعى للناس النجاشى فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصفَّ بهم وكبَّر أربع تكبيرات وهو حديث مجمع على صحته وعليه العمل بالمدينة، ومثل هذا يحتج فيه بالعمل لأنه قل يوم أو جمعة إلا وفيه جنازة وهو قول عامة فقهاء الأمصار الذين تدور عليهم الفتيا مالك(٤) وأصحابه والشافعى ومن اتبعه وأبوحنيفة وأصحابه

---

(١) غنى عن التعريف.

(٢) هو زيد بن ثابت أبو سعيد الأنصارى الخزرجى المقرئ كاتب وحى النبى ﷺ، أمره النبى ﷺ أن يتعلم خط اليهود فجود الكتابة وكتب الوحى وحفظ القرآن وأتقنه وأحكم الفرائض، وشهد الخندق وما بعدها وانتدبه الصديق لجمع القرآن فتتبعه وتعب على جمعه ثم عينه عثمان بن عفان لكتابة المصحف وثوقا بحفظه ودينه وأمانته وحسن كتابته، قرأ عليه القرآن جماعة منهم ابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمى، وحدث عنه ابنه خارجة وأنس بن مالك وابن عمر وغيرهم، وكان عمر رضى الله عنه يستخلفه على المدينة إذا حج، مات سنة ٤٥ هـ

انظر : أسد الغابة ٢/ ٢٧٨، الإصابة ١/ ٥٤٣، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٠خلاصة تذهيب الكمال ١٠٨، شذرات الذهب ١/ ٥٤، طبقات الفقهاء ٤٦، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٢٩٦، طبقات إلقراء للذهبى ١/ ٣٥، العبر ١/ ٥٣، النجوم الزاهرة ١/ ١٣٠ .

(٣) هو أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسى اليمانى، حفظ عن النبى ﷺ الكثير وعن أبى بكر وعمر وأبى بن كعب، وعنه سعيد بن المسيب وبشير بن نهيك وخلق كثير، وكان من أوعية العلم ومن كبار أئمة الفتوى مع الجلالة والعبادة والتواضع، ولى إمره المدينة وناب أيضا عن مروان فى أمرتها، مات سنة ٥٨هـ .

انظر النجوم الزاهرة ١/ ١٥١، العبر ١/ ٦٢، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٢٧٠، طبقات القراء للذهبى ١/ ٤٠، أسد الغابة ٦/ ٣١٨، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢، خلاصة تذهيب الكمال ٣٩٧.

(٤) هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحى الحميرى أبو عبد الله المدنى شيخ الأئمة وإمام دار الهجرة روى عن نافع ومحمد بن المنكدر وجعفر الصادق وحميد الطويل وخلق، وعنه الشافعى . له نحو ألف حديث، مات سنة ١٩٧هـ . =

وسفيان الثورى والأوزاعى والحسن بن حيى والليث بن سعد وأحمد بن حنبل وداود ا بن على الظاهرى، ومحمد بن جرير الطبرى وجماعة من التابعين منهم سعيد بن المسيب.

وقد خالف فى ذلك من الصحابة أمير المؤمنين أبو الحسن على بن أبى طالب رضى الله عنه، فكان يكبر على أهل بدر ستاً أو سبعاً وعلى سائر أصحاب رسول الله ﷺ خمساً وعلى سائر الناس أربعاً وكذلك ابن أبى ليلى فإنَّه قال: «يكبرها، خمسا» واحتج بحديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺكان يكبرها، وهوحديث صحيح أخرجه مسلم فى صحيحه (١).

مسألة

اختلف فقهاء الفتيا إذا كبر الإمام خمساً، فقال مالك والثورى: قف حيث وقفت السنة، قال ابن القاسم وابن وهب عن مالك: لا يكبر معه الخامسة ولكنه لا يسلم إلا بسلامه، وعن الحسن بن حيى وعبيد الله بن الحسن نحو ذلك.

وقال الشافعى: لا يكبر إلا أربعا وإن كبر الإمام خمسا فالمأموم بالخيار إن شاء سلم وقطع وإن شاء انتظر تسليم الإمام فسلم بسلامه ولا يكبر خامسة البتة.

وقال أبو حنيفة: إذا كبر الإمام خمسا قطع المأمومون بعد الأربع بسلام ولم ينتظروا تسليمه، وقد روى ذلك عن الثورى وهو قول أبى يوسف قديما ثم رجع عنه إلى قول زفر: التكبير على الجنائز أربع فإن كبر الإمام خمساً فكبر معه وهو قول الثورى وفى رواية أخرى.

وذكر جماعة من أئمة المحدثين أنه رأى جبريل مع رسول الله ﷺ مرتين وأن رسول الله ﷺ أعلمه أنه سيفقد بصره فعمى بعد ذلك فى آخرعمره وهو القائل فى ذلك:

= انظر: الأنساب ورقة ٤١أ، البداية والنهاية ١٠/ ١٧٤، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٧، تهذيب الأسماء ٢/ ٧٥،تهذيب التهذيب ١٠/ ٥، جمهرة الأنساب ٤٣٥، حلية الأولياء ٦/ ٣١٣، خلاصة تذهيب الكمال ٣١٣، الديباج المذهب ١٧، الرسالة المستطرفة ١٣، شذرات الذهب ١/ ٢٨٩، صفوة الصفوة ٢/ ٩٩، طبقات ابن سعد ٥/ ٤٥، طبقات الفقهاء ٦٧، طبقات القراء لابن الجزرى ٢/ ٣٥، العبر ١/ ٢٧٢.

(١) ورد فى صحيح مسلم ١/ ٢٦١ طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ هـ.

إن يأخـــذ الله مـن عـــينيّ نـورهمـــا ... فـــفـي لســـانـي وقلبي مـنهـمـــا نور
قلبـي ذكي وعـقلي غـــيـــر ذي دخل ... وفي فـــمـي صـــارم الســـيـف مـأثور

وَروى أن طائراً أبيض خرج من قبره فتأولوه علمه خرج إلى الناس ويقال بل دخل قبره طائر أبيض فقيل إنه بصره في التـأويل، وقال أبو الزبير: مات ابن عباس بالطائف فجاء طائر أبيض فدخل في نعشه حين حمل فما رؤى خارجا منه.

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ: ولولا شهـرة هذه الأحاديث لـم ألتفت منها إلى حرف ولكن أعرضها على سوق النقد للصرف (١). حدثني غير واحد من شيوخي بجزيرة الأندلس ثم رحلت إلى المشـرق ودخلت مـدينة أصـبهـان وقرأت بميـورد منهـا على الشيخ المسن الصالح الثـقة أبي جعفر مـحمد بن أحمد ابن نصـر بن أبي الفتح سبط الحسين بن مندة جمع المعجـم الكبير، وهو أكبر مسانيد الدنيا فـيه ستون ألف حديث في أصل الطبراني(٢) على أبي جعفـر المذكور في أصل سماعه ثم انتسخت منه أيضا على الحرة الستيـرة فارس بانوية بنت محمد يعرف بالبنـاء وفيه سماعها لجـميعه سنة ثماني عـشرة وخمسـمائة وسـمـاع شيخنا سنة عـشرين ثم حدثتني أيضـاً بذلك الحرة الزاهدة عفيفة الفارقانية (٣) بحق سماعها أيضاً لجـميعه قالوا: حدثتنا أم الغيث ويقال لهـا أيضا أم الخـير وأم إبراهيم فـاطمة بنت عـبد الله بن أحـمد بن القـاسم بن عقـيل الجوزدانـية سمـاعا عليـها وكـانت عابدة قـوية على التـعبد وكـانت ولادتها في نـحو الخمس والعشرين وأربعمائة وتوفيت ـ رحـمها الله ـ يوم الأربعاء في أول شعبان سنة

(١) وجـاء مثـل هذه الأخبـار في مناقب بغـداد قـال الشـيخ أبو بكر الخطيب وكل هذه الأحـاديث واهيـة الأسـانيد عند أهل العلم والمعرفة بالنقل لا تثبت بأمثالها حجة(تاريخ الخطيب ج١ص٤٣) وهكذا يقال في مناقب المدن الأخرى .

(٢) أبو القاسم سلمـان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني نـسبة إلى طبرية مدينة بالأردن، كان حافظ عصره، صـاحب رحلة إلى ديار مصر والحجاز واليمن والجزيرة والعراق وترجمته في الأنـساب للـسمعـاني ص ٣٦٦-١ ومعـاجمه فـي كشف الظنون ومـعجـمه الصـغير طبع في الهند، توفي سنة ٣٦٠هـ .

(٣) الفارقانية نسبة إلى ميا فارقين كما في السمعاني .

أربع وعشرين وخمسمائة فى قريتها التى تسبتها إليها [1] قالت: حدثنا الإمام العدل المحدث النحوى أبو بكر محمد بن عبد الله بن ريدة سماعا عليه وأنا آخر من يروى عنه فى الدنيا كما هو آخر من بقى من أصحاب الطبرانى.

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ وهو بكسر الراء المهملة وسكون الياء وفتح الذال المعجمة ـ توفى رحمه الله ـ فى شهر رمضان المعظم سنة أربعين وأربعمائة (١٠٤٩م) ويشتبه به زبدة بضم الزاى وسكون الباء المعجمة بواحدة من أسفل أخت بشر بن الحارث[2] الزاهد روت عن أخيها قال: حدثنا الإمام الحافظ بقية المحدثين أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمى الطبرانى من طبرية الشام سماعاً عليه قال: حدثنا على بن عبدالعزيز البغوى سماعا عليه قال: حدثنا المنهال ابن بحر أبو سلمة قال: حدثنا العلاء بن برد قال: حدثنا الفضل بن حبيب عن فرات ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: مررت برسول الله ﷺ وعلى ثياب بيض وهو يناجى دحية بن خليفة الكلبى وهو جبريل وأنا لا أعلم قال: فلم أسلم فقال جبريل: يا محمد من هذا؟ قال: هذا ابن عمى هذا ابن عباس قال: ما أشد وضح ثيابه ! أما إن ذريته ستعود بعده، ولو سلم علينا لرددنا عليه، فلما رجعت قال لى رسول الله ﷺ يا ابن عباس ما منعك أن تسلم ؟ قلت: بأبى أنت وأمى رأيتك تناجى دحية بن خليفة الكلبى فكرهت أن تنقطع عليكما مناجاتكما. قال: وقد رأيته ؟ قلت: نعم قال أما إنه سيذهب بصرك ويرده الله عليك فى موتك قال عكرمة: فلما قبض ابن عباس ووضع على سريره جاءه طائر شديد الوهج فدخل فى أكفانه فأرادوا نشر أكفانه فقال عكرمة: ما تصنعون ؟ هذه بشرى رسول الله ﷺ التى قال له فلما وضع فى لحده تلقى بكلمة سمعها من كان على شفير القبر ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [3] وقد رواه الحافظ أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوى عن يحيى بن عبد الحميد الحمانى.

حدثنا الحجاج بن تميم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس. وقيدناه بالأندلس عن

---

(١) ذكره السمعانى فى أنسابه وهى على باب أصبهان .

(٢) ورد الحرث وتسهيلاً لقراءته راعينا رسم الخط المعروف وهكذا فعلنا فى غير هذه اللفظة .

(٣) سورة الفجر الآيات ٢٧ ـ ٣٠

أصحاب الخولانى عنه عن القاضى أبى بكر حمام بن أحمد عن أبى محمد الباجى عن أبى عمر أحمد ابن خالد عن أبى الحسن على بن عبد العزيز البغوى فكرهت أن تقطعا مناجاتكما.

وسمعت فقيهاً كبيراً من أشياخ الأندلس يكسر التاء فى مناجاتكما ظنا منه أنها التاء الجمع وجريت على هذه الرواية مدة على طريقة السلف، كانوا يوردون الحديث كما سمعوه، وينبهون عليه فى حواشى كتبهم، فلما علمت أن الحديث بحمد الله لا يصح من طريق من الطرق أصلحته على الصواب وولجت المنزل من الباب، وأسندت الحديث إلى واضعه، بينت مثالب صانعه وإنما للأئمة فى ذكر هذه الأحاديث الموضوعة غرض وهو أن يعرفوا الحديث من أين مخرجه ؟ والمنفرد به أعدل هو أو مجروح؟ وكان يجب عليهم شرعا أن يبينوها خوفا من الوقوع فى الوعيد النبوى الوارد فيها وهو قوله ﷺ: «من حدث عنّى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين» أخرجه مسلم فى صحيحه من طريقين عن صاحبين (١) يرى بضم الياء أى يظن فهما كاذبان أحدهما كذب حقيقة والآخر كذب ظناً وهذا إنذار من رسول الله ﷺ لما علم بالوحى أنه كائن فى أمته، وأنه ﷺ مكذوب عليه، وفيه وعيد شديد للمحدث إذا حدث بما يظن أنه كذب على رسول الله ﷺ وإن لم يكن هو الكاذب فى روايته.

وثبت فى الصحيحين عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول ﷺ: لا تكذبوا علىّ فإنه من يكذب على يلج النار، وإن الزبير قال له ابنه عبد الله إنى لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان، قال أما أنى لم أفارقه ولكن سمعته يقول: «من كذب على فليتبوأ مقعده من النار » (٢).

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ ولم يذكر فى هذين الحديثين الصحيحين متعمداً فمن أجل هذا هاب بعض من سمع الحديث أن يحدث الناس بما سمع وهو بتين فى اعتذار الزبير ـ رضى الله عنه ـ إذ «من» من حروف العموم ففيهما دليل على أن

(١)، (٢) ورد فى صحيح مسلم ١/ ٥ طبعة بولاق سنة. ١٢٩٠هـ

الاحتياط فى رواية الاحاديث عن النبى ﷺ واجب وأن نقلها بغير ثبوت السند ومعرفة الصحة حرام.

وقد تقرب بوضع الحديث قوم لبنى العباس كما وضع غياث بن إبراهيم القاضى على المهدى حديث الحمام إذ كان المهدى تعجبه الحمام فأمر المهدى بذبح الحمام، قال ابن أبى خيثمة فقيل يا أمير المؤمنين: وما ذنب الحمام قال: من أجلهن كذب هذا على رسول الله ﷺ.

فأما فرات فهوابن السايب الجزرى أبو سليمان ويكنى أيضاً أبا المعالى، قال أبوحاتم بن حبان كان ممن يروى الموضوعات عن الأثبات ويأتى بالمعضلات عن الثقات لا يجوز الاحتجاج به ولا الرواية عنه ولا كتبة حديثه إلا على سبيل الاعتبار.

وقال الإمام أبو بكر بن أبى خيثمة: سألت يحيى بن معين فقال: فرات ابن السائب ليس حديثه بشىء.

وأما يحيى بن عبد الحميد الحمانى فقال: الإمامان إمام أهل السنة الصابر على المحنة أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل كان يحيى بن عبد الحميد الحمانى يكذب جهارا، وقال العبد الصالح ريحانة العراق أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن نمير كان يحيى بن عبد الحميد الحمانى يكذب، وقال الإمام أبو بكر أحمد بن أبى خيثمة فى أول تأريخه: وسمعت يحيى بن معين يقول: يحيى بن عبد الحميد الحمانى ثقة، وما كان فى الكوفة فى أيامه رجل يحفظ معه.

قال ذو النسبين - أيده الله - والجرح عند فقهاء الإسلام أعمل من التعديل لأنه شهد بأمر خاص وعلم من باطن الحال ما لم يعلمه من شهد بظاهرها وهو أمر طار عليه مخالف للأصل المستصحب.

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ وأما لغته ونحوه فالوضح البياض وبه سمى الرجل الأبيض وضاحا ومنه وضاح اليمن، وكان جذيمة الأبرش يسمى الوضاح لما به من البرص، ويقال أوضح الرجل إذا أولد له البيض من الأولاد ومنه الموضحة لأنها شجة تظهر بياض العظم.

وأما قوله «جاءه طائر شديد الوهج » فالوهج فى اللغة ضوء الجمر واتقاده فكأنه يريد طائرا شديد الضوء سريع الطيران كالوهج فى السرعة والضياء لأنه قد روى أنه كان طائرا أبيض أسنده الطبرانى أيضا فى معجمه الكبير فى ذكر وفاة ابن عباس رضى الله عنه.

وقال عن الراوى الذى شهد الجنازة، وهو يامين قال: يقال له الغرنوق هكذا قرأته فى أصل الطبرانى وهو عندى.

وقال أهل اللغة: الغرانيق عند العرب طير الماء واحدها غرنيق وليس فى كلام العرب على هذا الوزن غيره، والعامة تضع ذلك غير موضعه فيقولون لكراكى غرانيق وليس كذلك.

وإنما تكلمت عن لفظة الوهج لأنى وجدتها فى أصل الطبرانى الذى هو عندى. وفيه سماع جميع أهل أصبهان وغيرهم وهو مائتان وواحد وثلاثون جزءا وقرأته فى نسخة المازنى أبى نعيم « شديد الوضح » بالضاد المعجمة وكذلك ذكره فى كتاب دلائل النبوة له قد تقدم أن الوضح البياض. وقد قرأت جامع غريب الحديث [1] للإمام أبى محمد ثابت بن الحسن الخجندى وشرح هذا الحديث وأغرب به ولم يعرف علته.

وأما إعرابه فالمناجاة مفاعلة من النجوى كالمداعاة والمغازاة وأصلها مناجوة فقلبت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، ولا تكون من اثنين فصاعدا، وإعرابها إعراب الصحيح بالحركات الثلاث والتنوين تقول: بينهما مناجاة، وتناجيا مناجاة وأحسن مناجاة ومن كسر التاء فقد أخطأ لأنه تكلم بما لم تتكلم به العرب. وإن كانت المناجاة للبارى جل وعلا كانت من باب راقبته وعاقب اللص وطارق النعل لأنه يجل ويتقدس عن المفاعلة المخلوقية.

وأما رؤيته للروح الأمين جبريل فقد روى من وجوه قال ثابتة منها ما رواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير وقد تقدمت أسانيدى له.

قال حدثنا على بن عبد العزيز وأبو مسلم الكشى قالا حدثنا حجاج بن المنهال قال

(١) لم يتعرض له صاحب كشف الظنون، وهو مما فاته ويستدرك عليه.

حدثنا حماد بن سلمة قال أخبرنا عمار بن أبى عمار عن ابن عباس قال كنت مع أبى عند النبى ﷺ ومع النبى ﷺ رجل يناجيه فكان كالمعرض عن أبى فخرجنا من عنده فقال أبى ألم تر ابن عمك كالمعرض عنى ؟ فقلت يا أبه كان عنده رجل يناجيه فقال وكان عنده أحد ؟ قلت: نعم! فرجعنا فقال يا رسول الله إنى قلت لعبد الله كذا وكذا فقال لى كذا وكذا، هل كان عندك أحد ؟ قال: نعم رأيته يا عبد الله ؟ قلت: نعم. قال ذلك جبريل عليه السلام هو الذى شغلنى عنك.

قلت: هذا سند صحيح لا مطعن فيه، وحجاج بن المنهال أبو محمد الأنماطى البرسانى ثقة بإجماعهم قال أبو حاتم: هو ثقة فاضل. وقال أبو حفص الفلاس: ما رأيت مثل حجاج بن منهال فضلاً وديناً، وقد أخرجا عنه فى الصحيحين، قال البخارى: مات سنة سبع عشرة ومائتين (٨٣٢م) وحماد بن سلمة يكنى أبا سلمة إمام فقيه ثقة عدل، وعمار بن أبى عمار من ثقات التابعين وعدولهم، وقد أخرج مسلم أحاديثه عن ابن عباس والناس وقد أخرج هذا الحديث أيضا الإمام أحمد فى مسنده.

وأما لبس السواد فقد ثبت بإجماع أهل النقل أن رسول الله ﷺ لبس عمامة سوداء يوم فتح مكة، من حديث جابر بن عبد الله ومن حديث عمرو بن حريت أن رسول الله ﷺ خطب الناس وعليه عمامة سوداء والأحاديث فى هذا المعنى صحيحة والاقتداء برسول الله ﷺ سنة واجبة وباقى هذا النسب ذكرته فى كتاب سلسلة الذهب فى نسب سيد العجم والعرب.

ولما عرضت الخلافة على ابن عباس رغب عنها فعوضه الله فى بنيه خيرا منها، فلما كان يوم الجمعة الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة (٧٤٩م) خطب الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو العباس السفاح بعدما اشتفت من نفوس أعدائه صدور الصفاح، وولغت فى دمائهم ثعالب الرماح، وتبلجت بمحو ليل الدولة الأموية الدولة العباسية تبلج الصباح، وظهر الله ببنى هاشم ضواحى البسيطة وسبيلها وأقر الخلافة فى بيت ابن عم نبيه محمد ﷺ وكانوا أحق بها وأهلها.

ولقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دماء المبطلين، لأنه يقال: سفح الدمع انصب وسفحته أيضا يتعدى ولا يتعدى، قال الأديب أبو الخير ابن الأمنبارى والسفاح القادر على الكلام.

وصدق لعمرى فى هذا الكلام لأن أولَ الخطبة أحيا بها السنة وقام فيها وأتى من الإفصاح والبلاغة ما لم يسبقها، وقد وضع فى تسمية السفاح وأخيه المنصور أحاديث موضوعة وجعلت إلى رسول الله ﷺ مرفوعة أسندها الطبرانى فى معجمه وأبو نعيم الأصبهانى فى دلائل النبوة من تأليفه، ولم يبيناها ولا أوضحا وضعها ووهاها وأسندا فى ذلك أولادهم وعقبهم وأسماء بعضهم ولقبهم.

والأحاديث كلها تدور على قوم كذابين وضاعين مثل محمد بن زكريا الغلابى وهو فى الوضع من المتقنين يحدث عن قوم مفتعلين، وربما تحيل بهم على المعروفين، وإن لم يكونوا من المخلوقين، وهو من الداخلين تحت الوعيد النبوى عند كافة أهل الدين، وإنما هم ممن باع فى دنياه الدين بالدنيا، ووضع لأولى الأمر ما يتقرب به عندهم ويبعد من الأخرى، نعوذ بالله من شهوة تغلب على عقل، وتؤدى إلى وضع على رسول الله ﷺ فى النقل.

وكان السفاح كريماً سخياً بالأموال، حسن الأخلاق متألفاً للرجال، ماضى العزيمة، صعب الشكيمة، ذا سطوة على الأعداء متواضعاً للأصحاب والأولياء، زاد فى أعطيات الناس وكان يأكل معهم الطعام.

بويع بالكوفة ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة وصعد منبر الكوفة يوم الجمعة وخطب قائما وكانت بنو أمية تخطب قعودا فناداه الناس يا ابن عم رسول الله أحييت سنَّة رسول الله ﷺ، وبعث عبد الله بن على عم أبى العباس أشياخاً من أهل الشام فحلفوا لأبى العباس أنهم ما علموا لرسول الله ﷺ قرابة ولا أهل بيت يرثونه إلا بنى أمية والله يشهد إنهم لكاذبون، ستكتب شهادتهم ويسألون.

وكتب الخليفة إلى عمه عبد الله بن على يأمره بالمسير إلى مروان بن محمد الجعدى وقد اختلف أشياخنا فى تسميته بذلك فقيل نسب إلى مؤدّبه الجعد وكان يرمى بالزندقة فنسب إليه على طريق الذم لمروان وقيل نسب إلى خاله الجعد بن درهم، ويلقب أيضاً بالحمار وبحمار الجزيرة.

وقال ابن حزم: اختلف فى أمه فقيل أم ولد وقيل من بنى جعدة بن كعب من بنى عامر بن صعصعة، ورأيت بخط الفقيه الإمام أبى محمد بن زيدون أن أمه كردية واسمها بنانة وكانت لإبراهيم بن الأشتر أصابها محمد بن مروان يوم قتل ابن الأشتر

وهى نسء قال الخليل بن أحمد وغيره من أئمة اللغة يقال للمرأة أول ما تحمل نسء والجمع أنساء ونساء أنسأ وهو من التأخير، وذلك إنها إذا حبلت تأخر حيضها فولدت مروان على فراشه وكان أحزم بنى مروان ولكنه تولى الخلافة والأمر مدبر عنهم فلم يستقر له حال ولا ثبت فى مكان واحد لخروج بنى عمه وغيرهم عليه فزحف مروان إلى عسكر بنى العباس فاقتتلوا فهزم مروان وفضّ جمعه واتبعه عبد الله بن على حتى نزل بنهر أبى فطرس من أرض فلسطين واجتمعت إليه بنو عمه حين نزل النهر فقتل منهم بضعة وثمانون رجلاً.

وخرج صالح بن على بن عبد الله بن عباس بعد مقتلهم فى طلب مروان حتى لحقه بقرية من قرى الفيوم من أرض مصر يقال لها بوصير فقتله وكان الذى تولى قتله رجل على مقدمة صالح يقال له عمار بن إسماعيل من أهل خراسان ولم يمكن من نفسه ولم يزل بسيفه إلى أن سقط ميتاً. كذا قال ابن حزم فى المرتبة الرابعة وذلك يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول.

وقال ابن قتيبة فى المعارف: قتل فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

وهو أولى بالصواب وله تسع وخمسون سنة، وقال ابن حزم تسع وستون سنة.

وقال أحمد بن أبى يعقوب بن وهب بن واضح الكاتب فى تاريخه: قتل فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة وهو ابن أربع وستين سنة، وقيل ابن ثمان وستين وله عقب من ولده عبد الله فكانت ولايته خمس سنين وشهراً.

ولما وجه برأس مروان عبد الصمد إلى عبد الله بن على عم الخليفة فنظر إليه وعزل الرأس ناحية، فاقتلعت لسانه هرة وجعلت تمضغه فقال عبد الله لو لم يرنا الدهر من عجائبه إلا لسان مروان فى الهرة لكفانا ذلك.

ولما ورد على الخليفة أبى العباس رأسِ مروان وإن عبد الحميد الطائى نبش هشاما بالرصافة (١) وصلبه وأحرقه بالنار، خرّ ساجدا وقال: الحمد لله، قد قتلت بالحسين بن على عليهما السلام من بنى أمية مائتين وصلبت هشاماً بزيد بن على وقتلت مروان بأخى إبراهيم، وهو إبراهيم بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس وهو الرضى، دعى إليه ونصّ بالأمر على أخيه أبى العباس عبد الله السفاح قتله مروان بن محمد.

(١) انظر: معجم البلدان لياقوت الحموى.

قلت: وافترقت فى أيام بنى العباس كلمة الناس فخرج عليهم من منقطع الزابين إلى البحر وبلاد السودان إلى بلاد إفريقية إلى بلاد البربر ففى بلاد البربر جماعات من ولد إدريس وسليمان ابنى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السلام، وظهر بالأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان فتغلب عليها وعلى كثير من بلاد البربر واستولى على الملك سنة ثمان وثلاثين ومائة (٧٥٥م) ولم يزل الأمر فيهم إلى هشام بن الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله .

وكانت بيعة هشام بالخلافة صبيحة يوم الاثنين لخمس خلت من صفر سنة ست وستين وثلثمائة (٩٧٩م) وتغلب على الآمر محمد بن أبى عامر المعافرى الملقب بالمنصور صاحب الفتوحات العظيمة والمشاهد الكريمة لكنه أبقى الخطبة على بنى أمية إلى أن توفى مجاهدا فى أقصى الثغور ودفن بمدينة سالم فى ليلة الاثنين التى هى ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة (١٠٠٢م) فصار مكانه ابنه عبدالملك بن محمد الملقب بالمظفر فجرى على ذلك أيضا إلى أن مات فصار مكانه أخوه عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر فخلط وتسمى ولى العهد وبقى كذلك أربعة أشهر إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن بن الناصر المتسمى بالمهدى فخلع هشاماً وأسلمت الجيوش عبد الرحمن فقتل وصلب وبقى الأمر كذلك إلى أن قتل المهدى المذكور .

وبويع هشام بالخلافة كما كان فبقى إلى أن قاتله سليمان بن الحكم المستعين فدخل قرطبة بجيوش البربر وقتل هشام، وذلك لخمس خلون من شوال سنة ثلاث وأربعمائة (١٠١٣م) ولم يولد لهشام قط، ثم ملكت ملوك الطوائف على عادة الأمم السوالف.

وتوفى الخليفة أبو العباس السفاح فى مدينته التى بناها وسماها بالهاشمية يوم الأحد لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة (٧٥٣م)، وله ثلاث وثلاثون سنة وبقى فى الخلافة أربع سنين وثمانية أشهر ويوماً .

ثم صارت الخلافة إلى أخيه

أبى جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنه ـ الملقب بالمنصور(*) يوم الأحد ثالث عشر ذى الحجة وقيل ثانى عشر، سنة ست وثلاثين ومائة (٧٥٤م) وكان أسن منه وهو أول خليفة لقب نفسه وهو أبو الخلفاء إلى اليوم، وهو أول من نزل بغداد من الخلفاء، ومصر الجانب الغربى وكان مجمع سوق فى أيام الأكاسرة وهدم دار كسرى والمدائن وبنى المدينة المنصورية وأدأب نفسه فى التحصين والحراسة، وشكا الناس إليه ضيق المسجد الحرام فكتب إلى زياد بن عبدالله الحارثى أن يشترى المنازل التى تلى المسجد حتى يزيد فيه ضعفه، فامتنع الناس من البيع فذكر ذلك لجعفر بن محمد الصادق فقال : سلهم، أهم نزلوا على البيت أم هو نزل عليهم ؟ فكتب بذلك إلى زياد، فقال لهم فقالوا : نحن نزلنا عليه، فقال جعفر ابن محمد : فإن للبيت فناء، فكتب أبو جعفر إلى زياد أن يهدم المنازل التى تليه فهدمت المنازل، وأدخلت عامة دار الندوة فيه، حتى زاد فيه ضعفه، وكانت الزيادة مما يلى دار الندوة و ناحية باب بنى جمح ولم تكن مما يلى الصفا والوادى فكان البيت فى جانبه وكان ابتداء الأمر فى سنة ثمان وثلاثين ومائة (٧٥٥م) وفرغ منه سنة أربعين ومائة (٧٥٧م) وبنى مسجد الخيف بمنى وصيره على ما هو عليه من السعة، ولم يكن بها قبل ذلك.

وحج أبو جعفر سنة أربعين ومائة لينظر إلى ما زيد فى المسجد الحرام .

ثم اتصل به أن الراوندية هم ينسبون إلى أبى الحسين عبد الله الراوندى وقال سعد ابن على الزنجانى : هو أبو الحسين أحمد بن محمد بن يحيى بن محمد بن إسحق، وهم يزعمون أن كل كتاب نزل من الله عزوجل العمل به حق حتى الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، لأنه لا يحسن من الحكيم أن يقول فيندم فى مقالته ثم يرجع عنه، وكذبوا، قال الله العظيم ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١) ونحو ذلك .

(*) انظر ترجمته فى: تاريخ الطبرى ٩/ ١٥٤، الكامل فى التاريخ ٥/ ١٥٢، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٨٦، العبر ٣/ ١٨٠، تاريخ الخميس ٢/ ٣٢٤، مروج الذهب ٢/ ١٦٥، تاريخ بغداد ١٠/ ٤٦، فوات الوفيات١/ ٢٣٢، المحبر ٣٣ ـ ٣٤.

(١) سورة البقرة الآية ١٠٦

وقال ابن حزم: فى «النحل والملل» له : قالت الراوندية بإلهية أبى جعفر المنصور فخرج إليهم بنفسه وأمر بقتلهم فقتلوا كلهم إلى لعنة الله .

وقال غيره : زعموا أن أبا مسلم نبى وأبا جعفر المنصور هو الإله - تعالى الله عن ذلك - فطلبهم أبو جعفر واستتابهم فرجع عن ذلك قوم وثبت عليه قوم فلم يتوبوا فقتلهم وصلبهم، ذكر ذلك فى كتاب «بيان الفرقة الناجية » الحافظ موفق الدين أبو نصر أحمد بن محمد الحسين الطرقى، وحدثنى عنه غيرواحد من أشياخى بأصبهان.

وكان المنصور أحزم الناس، قد عركته الأيام أيما عرك، وحكّته بتقلبه فيها قبل إفضاء الأمر إليه بكل محك، فكان يجود بالأموال حتى يقال هو أسمح الناس، ويمنع فى بعض الأوقات حتى يقال هو أبخل الناس، ويسوس سياسة الملوك، ويثب وثبة الأسد العادى على الناس، ويتذكر ما فعل بنو أمية ببنى على وبنى العباس .

وهو الذى قتل أبا مسلم صاحب الدعوة أميرخراسان حكمها سبع سنين متصلة. وولى ثلاثة أشهر، من خراسان إلى أول عمل مصر مجموعاً له .

وكانت طبوله من جلود الكلاب فإذا أراد أن يركب ضرب فى عسكره بتلك الطبول فكان لها صوت هائل ودخل قلوب الناس منها رعب عظيم وفزع شديد .

وقتل من لا يحصى صبراً من قريش ومضر وربيعة واليمن وأهل البيوتات من العجم والفقهاء والشعراء .

قال ابن زيدون : وذلك ستمائة ألف رجل سوى من قتل فى الحروب والوقائع.

وله ابنة واحدة اسمها فاطمة من جارية، لأنه كان لا يطأ فى العام إلا مرة أو مرتين ويرى النكاح ضربا من الجنون مع شدة الغيرة .

ولحق بالخليفة أبى جعفر المنصور بالرومية التى بالمدائن وهو فى مضاربه فاجتمع به أحسن اجتماع ثم أتاه يوما وقد هيأ له عثمان بن نهيك وكان على حرسه فى عدة من وجوه الناس، وتقدم إلى عثمان وقال : إذا علاصوتى وصفقت بيدى فدونك العمل .

ودخل أبو مسلم فأجلس فى الحجرة، وقيل له إن أمير المؤمنين عليه شغل. فجلس ملياً، ثم أذن له، وقيل له انزع سيفك قال : ولم ؟ قيل : وما عليك ؟ فنزع سيفه ثم دخل، و ليس فى البيت إلا وسادة، فجلس عليها. ثم قال يا أمير المؤمنين فعل بى ما لم يفعل بأحد، أخذ سيفى عن عاتقى، قال: ومن فعل هذا بك قبحه الله ؟ فأقبل أبو مسلم يتكلم، فقال له : يا ابن اللخناء : إنَّك تستعظم غير العظيم ألست الكاتب إلىّ بيدك تبدأ باسمك على اسمى ؟ وجعل يعدد عليه أموراً .فلما رأى أبو مسلم ما قد دخله قال : يا أمير المؤمنين إن قدرى أصغر من أن يدخلك ما أرى ! وعلا صوت أبى جعفر وصفق بيديه، فخرج القوم فضربوه بأسيافهم فصاح : ألا مغيث ألا ناصر ؟ وهم يضربونه حتى قتلوه فلما قتلوه قال أبوجعفر المنصور:

اشرب بكأس كنت تسقى بها ... أمرّ فى فيك من العلقم
كنت حسبت الدين لا يقتضى ... كذبت والله أبا مجرم

ولف فى مسح وصير فى جانب المضرب .

ثم قيل لأصحابه : اجتمعوا فإن أمير المؤمنين قد أمر أن تنثر عليكم الدراهم، فنثرت عليهم بدرة، فلما أكبوا يلقطونها طرح عليهم رأس أبى مسلم. فلما نظروا إليه تخاذلوا وتفرقوا، وذلك يوم الخميس لخمس بقين لشعبان سنة تسع وثلاثين ومائة (٧٥٦م) .

وكان يدعى أنه من ولد سليط ابن عبد الله بن عباس وإنما هو مملوك لبكير ابن ماهان ابتاعه من عاصم بن موسى العجلى بأربعمائة درهم .

ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة » (١) ويروى تزن أى تعادل جناح بعوضة .

أخرجه الترمذى فى جامعه قال : حدثنا قتيبة قال حدثنا عبد الحميد بن سليمان عن أبى حازم بن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ .

قال الترمذى : هذا حديث صحيح وصدق إذ لا خلاف فى صحة هذا السند عند

(١) كذلك رواه النسائى.

أهل التعديل والتجريح، وفيه بيان هو أن الدنيا عند الله تعالى لأنه أعطى من كفر ووسع عليه منها فملكها مثل أبى مجرم فتسلط على كل مسلم .

وقرأت بخراسان على الثقة الزاهد أبى الحسن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الجرجانى - رضى الله عنه ـ قال : سمعت فقيه الحرمين أبا عبد الله محمد بن الفضل الصاعدى يقول سنة أربع وعشرين قال حدثنا العدل أبو الحسين عبد الغافر من محمد الفارسى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة قراءة عليه وأنا أسمع، قال : قرأت على الحاكم الثقة أبى أحمد الجلودى قال : سمعت الفقيه الإمام عابد خراسان أبا إسحاق ابن سفيان يقول : سمعت الإمام أبا الحسين مسلم بن حجاج يقول :

حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب قال : حدثنا سليمان (يعنى ابن بلال) عن جعفر عن أبيه عن جابر بن عبد الله : أن النبى ﷺ مرَّ بالسوق داخلا من بعض العالية والناس كنفيه فمرَّ بجدى أسكّ ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه ثم قال : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشىء وما نصنع به؟ قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت ؟ فقال فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم .

وله طريق آخر فى صحيح مسلم عن عبد الوهاب الثقفى عن جعفر عن أبيه عن جابر عن النبى ﷺ بمثل غير أن فى حديث الثقفى (فو كان حيا كان هذا السكك به عيبا).

(العالية) كل ما كان من جهة نجد من المدينة من قراها وعمارها فهى العالية، وما كان دون تلك من جهة تهامة فهى السافلة، والعوالى من المدينة على أربعة أميال وقيل ثلاثة أميال وذلك أدناها وأبعدها ثمانية أميال .

وقوله: (والناس كنفيه) أى ناحيتيه، وقوله (بجدى أسك) هو الصغير الأذنين ملتصقهما.

وفيه من الفقه أن رسول الله ﷺ لم يتوضأ من مس الميتة، وفيه أن الشعر لا ينجس بالموت، لأن الجدى من المعز، وهى من ذوات الشعر بنص كتاب الله العظيم .

والمنصور هو الذى ضرب أبا حنيفة على القضاء فامتنع وقال : لا أصلح فقال له : أنت أبو حنيفة الفقيه كيف لا تصلح ؟ فقال له : إما أن أكون صادقاً فيجب أن تقبل قولى، وإما أن أكون كاذبا فقاضٍ لايكذب ولا يكون كذاباً .

فضربه وحبسه ومات فى حبسه، ولما مات صلى عليه المنصور سنة خمسين ومائة.

ومولده سنة سبعين فى رواية ابن كأس، وفى رواية حماد أنه سنة ثمانين وهو الصحيح (١).

وتوفى الخليفة أبو جعفر المنصور يوم السبت لست ليال خلت من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة وله ثلاث وستون سنة عند بئر ميمونٍ على أميال من مكة هو محرم وصلى عليه ابنه صالح ودفن بالحرم الشريف (٢) .

وسنّة المحرم إذا مات ما ثبت عن ابن عباس أن رجلا كان مع رسول الله ﷺ فوقصته ناقته وهو محرم فمات، فقال رسول الله ﷺ اغسلوه بماء وسدر وكفنوه فى ثوبيه ولا تمسوه بطيب ولا تخمروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا .

أخرجاه فى الصحيحين فرواه البخارى، قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال: حدثنا هشيم وأخرجه مسلم، قال وحدثنا محمد بن الصباح قال حدثنا هشيم قال أخبرنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وله طرق فى الصحيحين غير هذا .

وأبو بشر هو جعفر بن إياس وإياس يكنى أبا وحشية .

وفيه فضل كبير لمن مات محرماً، وان الله جلّت قدرته يبعثه يوم القيامة ملبيا والناس قد ألجمهم العرق وخامرهم الفرق ولم يأمر النبى ﷺ أن تؤدى عنه بقية

---

(١) كتب فى مناقب الإمام أبى حنيفة كثيرون أورد أسماء كتبهم صاحب كشف الظنون ومشهده مشهور فى ناحية الأعظمية ، ومدرسته هناك ، واليوم قامت مقامها دار العلوم وينسب إليه من المؤلفات الفقه الأكبر وكتاب الوصية ومسند أبى حنيفة .

(٢) ولعمر بن شبة النميرى المتوفى فى ٢٦ جمادى الآخرة سنة ٢٦٢ هـ - ٨٧٦م (أخبار المنصور) وجاءت أخبار ابن شبة فى الفهرست لابن النديم ص ١٦٣ وابن خلكان ج ١ ص٢٧٨ والخطيب البغدادى ج١١ ص٢٠٨ قال الخطيب : كان ثقة عالماً بالسير وأيام الناس ، وله تصانيف كثيرة .

الحج، وفيه حجة لمن قال : لا ينقطع حكمه .، قال أحمد بن حنبل: لا ينقطع الإحرام بالموت، وقال مالك وأبو حنيفة : ينقطع.

وقوله «فوقصته» الوقص كسر العنق يقال وقصه وأوقصه، ولم يذكر صاحب الأفعال [1] فيه إلا وقصه لا غير ومنه الأوقص القصير العنق والاسم الوقص كأنه وقص فدخل عنقه فى جسمه .

فكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا [2] وكان حافظاً لكتاب الله العظيم متبعا لآثار رسول الله عليه أشرف الصلاة وأفضل التسليم، فقيها محدثا كاتباً بليغا، كتب إلى عامل أفريقية وقد شكا إليه جفاء أهل المغرب: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» وجمع من الأموال ما لا يحصى كثرة ووجد له من العين تسعمائة ألف ألف دينار وستون ألف ألف درهم، وكان يقول: من قل ماله قل رجاله ومن قل رجاله قوى عليه عدوه، ومن قوى عليه عدوه اتضع ملكه، ومن اتضع ملكه استبيح حماه، ذكر ذلك ابن واضح الكاتب فى تاريخه [3] .

---

(١) لعله يريد كتاب الأفعال وتصاريفها لأبى بكر محمد بن عمر القرطبى المعروف بابن القوطية النحوى المتوفى سنة ٣٦٧هـ . راجع كشف الظنون .

(٢) ترجمة الخليفة المنصور فى الخطيب البغدادى ج١ ص٦٥ وج١٠ص ٥٣.

(٣) هو المعروف فى هذه الأيام بـ«اليعقوبى» واسمه أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسى ، كان جده من موالى المنصور ، يحب الاسفارساح فى بلاد الإسلام شرقا وغربا ، ودخل أرمينية سنة ٢٦٠هـ ثم رحل إلى الهند ، وعاد إلى مصر و بلاد المغرب وله التاريخ وطبع فى أوروبا وفى النجف وكتاب البلدان طبع أيضاً.، توفى سنة ٢٨٤هـ ـ ٨٩٧م وترجمته فى معجم الأدباء ج٢ ص١٥٦ وفى كتاب الكنى والألقاب ج٣ ص٢٤٦ وآداب اللغة العربية ج٢ ص١٩٦.

ثم صارت الخلافة لولده المهدى (١)

أبى عبد الله محمد بويع له يوم التروية سنة ثمان وخمسين ومائة (٧٧٥م) بين الركن والمقام على يدى الربيع مولى المنصور ووزيره فعقدها على من حضر من الهاشميين والقواد، وحضر صالح بن المنصور وموسى بن المهدى وأنفذ الربيع له الخبر مع منازة مولى أبى جعفر فسار اثنى عشر يوما إلى بغداد، والمهدى بها فبايعه الناس .

وكان أكرم أهل زمانه، إذا أعطى ألف دينار استقلها، وفرق جميع ما تركه أبوه فأزال المظالم وأحيا المعالم وقمع الظالم ونصر المظلوم وأكرم أهل العلم والدين وحلم عنهم وأخباره مع سفيان الثورى مشهورة، وهو أول من مشى بين يديه بالسيوف المصلتة والقسى والنشاب والعمد، وأول من لعب بالصوالجة فى الإسلام وقتل الزنادقة والثنوية (٢)، فالزنديق اسم يقع على من لا يثبت للمصنوعات صانعا وعلى من لا يثبت الرسالة أصلاً وإن أثبت الصانع، وعلى من يتترس فيستتر بالشهادتين ولا يعتقد شيئا وأنه ليس مكونا ولا مدبرا وأن هذا الخلق بمنزلة النبات يموت منه شىء ويحيى منه شىء . وإنما تغلب عليه الطبائع الأربع فى أبدانهم فإذا غلبت عليه إحداهن قتلته وإن أباه هو الذى خلقه حتى توهموا أن لآدم أبا تعالى الله عن قولهم وكرم دينه عن إفكهم .

والثنوية (٣)هم الذين يزعمون أن الإنسان ما دام يحسن فهو يعمل بروح اللاهوت وإذا أساء فهو يعمل بروح الشيطان وأن الخير من الله والشر من إبليس ومن أنفسنا،

(١) انظر تاريخ الخلفاء ٢٧٩-٢٨٣

(٢) الزنادقة: أوضح المؤلف عنهم وعما يراد بالزندقة، وما حصل فيها من توسع وكانت تطلق على المانوية، أو كما قال صاحب الفهرست المانية ص ٤٥٦ وما بعدها وعبر عنهم بالزنادقة وهنا فرق بين الزنادقة والثنوية وأوضح المراد من الزندقة وما يقصد من معانيها، واللفظ فى الأصل مأخوذ من زندا-ويستا فشاع استعماله فى الزندقة، وفى مجلة الرسالة بحث مهم عن الزندقة (عدد: ٦٤٤، ٦٤٥، ٩٥٢) وفى كتاب الإلحاد فى الإسلام أيضا توسع فى الموضوع.

(٣) وفى الفهرست لابن النديم لم يفرق بين المانوية والثنوية أو كان أحدهما قريبا للآخر وهنا فرق المؤلف ، واعتبر المؤلف الزندقة معانى غير مقصودة من الثنوية ، وفى كتب الفرق البحث موسع فى كل منهما .

وكذبوا، هل من خالق غير الله ؟ وكذلك رد عليهم بما صح عن رسول الله ﷺ وهم عن طريق اللغة منسوبون إلى اثنين لزعمهم أن خالق الشر غير خالق الخير .

والمهدى هو الذى بنى جامع الرصافة [1] وتربته بها وحج سنة ستين ومائة فجرد الكعبة وكساها القباطى والخز والديباج وطلى جدرانها بالمسك والعنبر من أعلاها إلى أسفلها، وكانت الكعبة فى جانب المسجد لم تكن متوسطة فهدم حيطان المسجد الحرام وزاد فيه زيادات واشترى من الناس دورهم ومنازلهم وأحضر الصناع والمهندسين من كل بلد وكتب إلى مولاه وعامله على مصر واضح فى حمل الأموال إلى مكة فكان ذلك كذلك وصيرت الكعبة فى الوسط على ما هى عليه الآن لأنه آخر من زاد فيها .

وحمل إلى المسجد الحرام من مصر أربعمائة وثمانين أسطوانة طول كل أسطوانة عشرة أذرع وصير فيه أربعمائة طاق وثمانية وتسعين طاقا وجعل للمسجد من الأبواب ثلاثة وعشرين بابا بناه بالذهب والفسيفساء وجعل سلاسل قناديله ذهبا وجعل ذرعه مكسرا مائة ألف ذراع وعشرين ألف ذراع، وطول المسجد من باب بنى جمح إلى باب بنى هاشم عند العلم الأخضر أربعمائة ذراع وأربعة أذرع وعرضه من باب دارالندوة إلى باب الصفا ثلثمائة ذراع وأربعة أذرع، وبنى العلمين اللذين يسعى بين الصفا والمروة بينهما. وبينهما من الذرع مائة ذراع، وأثنا عشر ذراعا فصار بين الصفا والمروة لما أخرج المسجد الذى هو فيه الساعة سبعمائة وأربعة وخمسون ذراعاً.

ووسع مسجد رسول الله ﷺ وزاد فيه وحمل إليه عمد الرخام والفسيفساء والذهب ورفع سقفه وألبس خارج القبر المقدس الرخام .

وثبت فى الصحيحين عن عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ قال: من بنى مسجدا لله تعالى بنى الله له فى الجنة مثله .

وفى الحديث حثّ على بناء المساجد لأن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - قال

(١) الرصافة محلة ببغداد عند باب الطاق وبها الجامع الحسن الكبير للمهدي ، ويسمى «جامع المهدى» بنى سنة ١٥٩هـ-٧٧٦م ، ولم يبق له أثر فى هذه الأيام ، وجاءت تواريخ عديدة موضحة عنه ويعرف بـ« جامع الرصافة » أيضاً وفى أنساب السمعانى قد تعين موقع الرصافة وكذا فى معجم ياقوت .

ذلك عند قول الناس فيه حين بنى مسجد رسول الله ﷺ : إنكم أكثرتم، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : من بنى مسجداً، قال بكير : حسبته أنه قال : يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة .

وفى قوله «لله» إشارة إلى الإخلاص لأنه قد يبنى الإنسان مسجداً ليقال، وفيه أيضاً المجازاة فإنه كما بنى يبنى له، ولا يخفى أن المجازاة إنما تكون على قدر العمل الذى وقع الجزاء عليه وهى إشارة إلى المماثلة والفرق بين الدنيا والآخرة، أن الدنيا عمل والآخرة جزاء، وأن البناء فى الدنيا فى الدنيا بالحجر والمدر وفى الآخرة بالدرر والياقوت الأحمر .

وثبت عن رسول الله ﷺ، أنه قال : ولقاب قوس أحدكم من الجنة أو موضع قيد ـ يعنى سوطه ـ خير من الدنيا وما فيها .

رواه أنس عن النبى ﷺ أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب الجهاد .

قلت ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾(١) قدر طولها وقال المفسرون فى قوله جلَّ وعلا: «فكان قاب قوسين» أى قدر قوسين وقيل : القوس هاهنا الذراع بلغة أزدشنوءة . وقيل: القاب ظفر القوس وهو ما وراء معقد الوتر، يقال : هو قاب رمح وقاد رمح وقيد رمح وقدى رمح وقدة رمح وقيد سوطه أى قدره.

وأراد ﷺ ـ والله أعلم ـ ذم الدنيا والزهد فيها والترغيب فى الآخرة، فأخبر أن اليسير من الجنة خير من الدنيا كلها، وإنما ذكر قدر السوط والقوس على التقليل إلا أنه أراد قدر القوس ولا قدر السوط، بل موضع نصف سوط وربع سوط وظفر سوط من الجنة الباقية خير من الدنيا الفانية .

وهذا مثل قول الله عز وجل: ﴿مِنْهُم إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ (٢) لم يرد القنطار بعينه، وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ لم يرد الدينار بعينه، وإنما أراد التقليل أى أن منهم من يؤتمن على بيت مال فلا يخون ومنهم من يؤتمن على فلس أو نحوه فيخون .

---

(١) سورة النجم الآية ٩.

(٢) سورة آل عمران الآية ٧٥.

وقدم خراسان وأصلح حال البلاد وأزال المظالم عن العباد، ولما قدم من الرى دخل عليه أبو دلامة الشاعر يهنئه بقدومه فأقبل عليه المهدى، وقال : كيف أنت يا أبا دلامة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين :

إنى حلفت لئن رأيتك سالماً ... بقرى العراق وأنت ذو وفر
لنصلينَّ على النبى محمد ... ولتملأن دراهما حجرى

فقال له المهدى : أما الأولى فنعم، وأما الثانية فلا ! فقال : جعلنى الله فداك إنهما كلمتان لا يفرق بينهما فقال يملأ حجر أبى دلامة دراهم فقعدو وبسط حجره فنزلت فيه بدرة دراهم، فقال له :قم الآن يا أبادلامة .فقال : يتخرق قميصى يا أمير المؤمنين حتى أشيل الدراهم وأقوم : فرد الدراهم إلى كيسها وأخذها على صدره بثقلها ودعا له وخرج .

ووقع المهدى على كتاب عامل الكوفة ورده بذكر سوء طاعة أهلها: «لا تطلب الطاعة ممن خذل عليا، وكان إماما مرضيا» .

ومن أغرب أخبار الدنيا

أن المهدى رأى رجلاً فى المنام يعرفه بهدم قصره وبموته، فمات بعد ذلك بعشر ليالى من الرؤيا، ولم يبق من القصر والدار أثر بعده يستدل به عليهما، وكرهت ذكر الرؤيا على نصها والأبيات التى فيها .

وتوفى فى المحرم سنة تسع وستين ومائة (٧٨٥م) يوم الخميس لثمان بقين من محرم بمسبذان .

وذكر الحافظ أبو محمد بن حزم فى كتاب (نقط العروس فى ضريب التواريخ والحكايات والأخبار) فى باب من مات من الخلفاء مقتولا وأنواع قتلهم، قال : إن المهدى أرادت إحدى حظيتيه طلة وحسنة أن تسم الأخرى فى حلواء فأكلها هو فمات .، وكانت تقول فى بكائها عليه : أردت الانفراد بك فأوحشت نفسى منك، أو كلاماً نحو هذا، وتوفى وله اثنتان وأربعون سنة، فكانت خلافته عشر سنين وشهرا ونصف شهر

ثم صارت الخلافة إلى ولده الهادى بالله (١)

أبى محمد موسى فلم يطل مقامه فيها سوى سنة وثلاثة أشهر لأنه توفى ليلة الجمعة سادس عشر ربيع الأول من سنة سبعين ومائة (٧٨٦م) وهو ابن خمس وعشرين سنة .

وفى هذه الليلة مات خليفة وهو الهادى، وولى خليفة وهو الرشيد، وولد خليفة وهو عبد الله المأمون .

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ٤٤٥، تاريخ اليعقوبى ٣/ ١٣٩، البداية والنهاية ١٠/ ٢١٣، البدء والتاريخ ٦/ ١١، مروج الذهب ٢/ ٢٠٧، ٣٢١، تاريخ بغداد ١٤/ ٥.

opeikandl.com

ثم صارت الخلافة

صبيحة ذلك اليوم الذى هو يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول من التأريخ إلى أبى جعفر هارون[1] الرشيد بالله، وفى أيامه كملت الخلافة بكرمه وعدله وتواضعه وزيارته العلماء فى ديارهم كمالك بن أنس، وسفيان ابن عيينة، وعبد الرزاق بن همام المحدث، والفضيل بن عياض وغيرهم .

وكان يحج سنة ويغزو سنة، ولما ورد عليه كتاب صاحب الثغور وقد ذكر له فيه خروج طاغية الروم وقع على كتابه « أنا فى الأثر، ومن الله الظفر » .

ووقع أيضاً، وقد ورده كتاب ثان منه فى المعنى: «وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار». ووقع على رقعة رجل يتظلم فى عمرو بن مسعدة: «يا عمرو اعمر نعمة الله عندك بالعدل فإن الجور يهدمها » فحج تسع حجج، وغزا ثمانى غزوات .

وكان يعادله فى المحمل إلى مكة القاضى أبو يوسف يعقوب إبراهيم بن حبيب بن حبيش بن سعد بن بجير من بجيلة وهو سعد بن عتبة صاحب رسول الله ﷺ، نسب إلى أمه حبتة بنت مالك الأنصارية، رآه رسول الله ﷺ يوم الخندق يقاتل قتالاً شديداً فمسح على رأسه ودعا له بالبركة فى ولده ونسله فكان عماً لأربعين وخالا لأربعين وأبا لعشرين .

وكان الرشيد من أهل العلم متضلعاً من الأدب يقرض الشعر ويجيده . فمن شعره ما رواه أبو محمد عبد الله بن مروان العمرى فيما ذكر الحميدى فى «جذوة المقتبس»[2] له:.

ملك الثلاث الآنسات عنانى ... وحللن من قلبى بكل مكان

مالى تطاوعنى البريّة كلها ... وأطيعهنّ وهنّ فى عصيانى

ماذاك إلا أنّ سلطان الهوى ... وبه قوين أعزّ من سلطانى

---

(١) انظر: الكامل ٦/ ٩٥، تاريخ اليعقوبى ٣/ ١٦٢،تاريخ الطبرى ١٠/ ١٢٤، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٣، ثمار القلوب ١٤٨.

(٢) هو «جذوة المقتبس فى تأريخ علماء الأندلس» للحميدى المتوفى سنة ٤٨٨هـ ذكره فى كشف الظنون.

قلت: عارضها الظافر المستعين بالله سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر(١) فقال:

عجباً يهاب الليث حدّ سنانى ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال، لا متهيباً ... منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظر ... من فوق أغصان على كثبان
هذى الهلال وتلك بنت المشترى ... حسناً. وهذى أخت غصن البان
حاكمت فيهن السلوّ إلى الصبا ... فقضى بسلطان على سلطانى
فأبحن من قلبى الحمى وثنينى ... فى عزّ ملكى كالأسير العانى
لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى ... ذلّ الهوى عزّ وملك ثان
ما ضرّ أنى عبدهن صبابة ... وبنو الزمان وهن من عبدانى
إن لم أطع فيهنّ سلطان الهوى ... كلفاً بهنّ فلست من مروان
وإذا الكريم أحبّ أمّن إلفه ... خطب القلا وحوادث السلوان
وإذا تجازى فى الهوى أهل الهوى ... عاش الهوى فى غبطة وأمان

وقتل الرشيد البرامكة سنة سبع وثمانين ومائة واستوزر الفضل بن الربيع واختلفت أخباره وأفعاله بقتل البرامكة.

وجدهم برمك كان على دين المجوسية هو وأجداده ، وأصله من الجبل من نواحى خراسان وكان كاتباً أديباً ظريفاً قد تبحر فى أخبار ملوك الفرس وعلمائهم، ثم نظر فى علوم الإسلام حتى حصل علوما كثيرة وقصد من بلاده إلى الشام إلى دمشق إذ كانت حضرة الخلافة فى أيام بنى أمية فصحب خواص عبد الملك بن مروان حتى اتصل بعبد الملك بن مروان بعد حكاية يطول ذكرها، فحسن موقعه عنده، عبد الملك ، وعلا قدره عنده، ورزق الأولاد والعدد والعتاد وانقضت دولة بنى أمية .

(١) جاء ذكره فى نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢.

وولد لبرمك، فوزر خالد بن برمك للخليفة أبى العباس السفاح بعد قتل الوزير أبى سلمة الخلال وزير آل محمد ﷺ، وهو أول خليفة قتل وزيره فى الإسلام وذلك برأى أبى مسلم الخراسانى.

ثم استوزر خالد أيضاً للخليفة أبى جعفر المنصور، ثم غلب على الوزارة الربيع ابن سليمان، وولد لخالد يحيى، فوزر يحيى لهارون الرشيد بعد موت أخيه موسى الهادى، وكثر تصرفهم فى البلاد، وولد ليحيى الفضل وجعفر، فوزرا للرشيد.

وانتشر ذكرهم وجودهم فى الأقطار، وحازوا فى ذلك شرف الذكر وعلو الفخار. وبهم تضرب الأمثال فى الجود العميم، والكرم الجسيم. ثم زاد الخليفة هارون لجعفر مع الوزراة الملك، وقال له فى الذى عقد له بالملك: يا أخى يا جعفر، قد أمرت لك بمقصورة فى دارى، وما يصلح لها من الفرش وعشر جوار، يكن فيها ليلة مبيتك عندنا، قال جعفر: يا أمير المؤمنين ما من نعمة متواترة ولا فضل متظاهر إلا ورأى أمير المؤمنين فىّ أجمل وأتم.

ثم انصرف جعفر وقد خلع عليه وحمل بين يديه بدرة دنانير ومائة بدرة دراهم، وأمر الناس بالركوب إليه، والسلام عليه. وأعطاه خاتم الملك وأمره أن يختم به كيف أراد بأمره ورضاه،حتى بلغ من صيته فى الدنيا ما لم يبلغه أحد سواه.

وهو الذى أمر بزيادة مائة دينار فى دينار[1] وقصته مشهورة، وفى كتب البرامكة مذكورة، وكان يفرقها على الناس فى النيروز والمهرجان.

وأمر أن يكتب على أحد الوجهين:

وأصفر من ضرب دار الملوك ... يلوح على وجهه جعفرا

زيد على مائة واحداً ... إذا ناله معسر أيسرا[2]

---

(١) هذه دنانير الصلات والأفراح ولم تكن من الدنانير المتداولة المتعامل بها، ولا تعد بوجه من نقود الدولة كما توهم كثيرون، جاء ذكرها فى كتب الأدب فى يتيمة الدهر للثعالبى وغيرها .

(٢) فى كتاب «الوزراء والكتاب» للجهشيارى ص ٢٤١ ذكر هذه الأبيات بوجه آخر، وهنا تفصيل فى ابن دحية لانراه فى غيره و نقل ما فى الجهشيارى المرحوم أحمد تيمور باشا ولم يقطع فى أن المراد تصويره أو اسمه كما فى كتاب التصوير عند العرب ص ٣١ وعلق عليه الدكتور زكى محمد=

وهو بيت إعراب عند النحويين، واعلم أن فى قوله يلوح روايتين إحداهما ما رواه الفراء ـ وهى الرواية الصحيحة ـ تلوح بالتاء المثناة باثنتين من فوق فلا إشكال فى نصب جعفر على هذه الرواية لأنه مفعول بتلوح.

وذلك أنه يقال فى ما حكى الفراء: لحت الشيء لوحا ولوحة إذا أبصرته، يقال لاحت نظرت وتشرفت، فمعنى تلوح تبصر على وجهه جعفرا فيكون المعنى يرى جعفرا هذا الاسم المنقوش على وجه الدينار لائحا وهذا بيّن لا إشكال فيه ولا تعسف فى إعرابه.

وأما الرواية الثانية يلوح بالياء المثناة باثنتين من تحت ففى نصب جعفر إشكال فمن النحويين من قال: هو منصوب بإضمار فعل تقديره اقصدوا جعفرا أو عليكم جعفرا.

ومنهم من جعله من باب المفعول المحمول على المعنى من جهة أن جعفراً قد دخل فى الرؤية من جهة المعنى لأن الشيء إذا لاح لك فقد رأيته، ومثل ذلك مما انتصب بحمله على المعنى قول ابن قيس الرقيات (١):

لن تراها ولو تأملت إلا ولها فى مفارق الرأس طيبا

فنصب طيبا لما دخل فى الرؤية.

ومثله قول عمرو بن قميئة:

تذكرت أرضاً بها أهلها أخوالها فيها وأعمامها

فنصب أخوالها وأعمامها لما دخلا فى التذكر وهذا على مذهب سيبويه.

وأما ما ذكر أبو الفتح بن جنى فإنه بدل من الأرض وهو بدل الاشتمال ومثل القول الأول قول عبد العزيز بن زرارة الكلابى:

= حسن بقوله :« يرجح عندنا أن المراد اسم جعفر لا صورته » وابن دحية قد رجح ذلك أيضا، وما فى مجلة الثقافة عدد ٣٠٢ منقول من الخطيب البغدادى ج٧ ص١٥٦ رجح به الدكتور مصطفى جواد تصويره، ومن هذه النصوص يعرف وجه الخلاف.

(١) هو عبيدالله بن قيس الرقيات. طبع ديوانه فى أوربا وتوفى سنة ٧٥هـ

وجـــدنا الصـــالحين لهم جـــزاء وجنـات وعـــيناً سلســـبيـــلا

فنصب جنات وعيناً لما دخلا فى الوجدان

والاستشهاد بالشعر عليه يطول فهذا مما يحتج به ولمن زعم أن جعفراً انتصب لدخوله فى الرؤية من جهة المعنى ويقدر له الناصب ما دخل عليه يلوح من الرؤية كما تقدم فى الأبيات.

وفى هذا ضعف من جهة أن يلوح يبقى بغيرفاعل والفاعل لابد منه لأن الفعل لا يخلو من فاعل إما ظاهراً وإما مضمراً.

ومن النحويين من نصب جعفراً بالمصدر الذى هو ضرب تقديره من ضرب دار الملوك جعفراً على وجه الدينار وأضاف الضرب إلى الدار، وإنما هو لأهلها ولأصحابها على وجه الاتساع كما تقول:هذا الدينار من ضرب الدار، وهذا الثوب من عمل الدار.

وفى هذا الوجه أيضاً من جهة الفصل بين المصدر وصلته بأجنبى، ألا تراه قد فصل بقوله: «يلوح على وجهه» بيت ضرب وجعفر وهو أجنبى منه، فعلم بهذا أن رواية الفراء فى البيت هى الصحيحة التى لا إشكال فيها.

فضرب عشرة آلاف دينار على هذه الصفة ودفعها لرجل واحد مدلس ينفقها مع جاريته وكان دلّس عليه بولاية مصر فعفا عنه وألحقه بالبرامكة.

وبعد هذا كله أمر الخليفة بضرب عنقه بحيلة حصله بها فى جوف داره وقسم جسده نصفين فجعل نصفه فى الجانب الشرقى ونصفه فى الجانب الغربى، ونهب ديار البرامكة وأمر بقتل غلمانهم وأصحابهم، وأنفذ إلى النهروان، فأخذ جميع ما كان لجعفر من المال والسلاح والكراع، وقبض على الشيخ الوزير يحيى أبى جعفر، على ولده الفضل، فسجنهما بعد أن نزعهما من نعمتهما وخرّب ديارهما ونهب عيالهما واستعبد ذراريهما.

وكان الخليفة قد نذر الحج إلى بيت الله الحرام راجلاً، حافياً إن أظفره الله بالبرامكة ولم تثر عليه البلاد. وقال: لو علمت يمينى بالسبب الذى له فعلت هذا لقطعتها.

فخرج حاجاً تضرب له السرادقات مظللة، ويخرج من سرادق إلى سرادق إلى أن وصل مكة.

وفى تلك الأيام مات يحيى فى السجن بقيده، فلما قدم الخليفة سأل عنه فأعلم بموته، فقال: لا إله إلا الله، مات الخير بأسره، وقال: والله لو وجدت يحيى حياً لأفرجت عنه، ولكن لا بدَّ أن أنظر فى حال الفضل إن شاء الله، فلما كان فى غداة غد توفى الفضل، فعلم الرشيد بوفاته قال: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، مات والله الجود اليوم بأسره، هذا الفضل والله الذى يقال فيه:

ولو لم تكن فى كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائله

ولكن كان قضاء الله قدراً مقدوراً.

وقد كان الخليفة ندم، ويزور شلو جعفر بباب الطاق بحيث لا يعرفه أحد، يخرج فى زىّ العامة، وقد كان استشار زبيدة زوجه، وكانت مبغضة لجعفر فأشارت عليه، فهم بالموت الأحمر، والفعل الأكدر، والقول الأنكر.

وكان نكب البرامكة، كما قدمنا، فى صفر سنة سبع وثمانين ومائة (٨٠٣م) وقتل جعفر. وذلك لتسع عشرة خلت من خلافته، ولا يلتفت فيهم إلى قول الحسن بن هانئ وهجوه لهم فذلك بهت ومخرفة، لأنهم سجنوه على الزندقة.

وتوفى الخليفة أبو جعفر هارون الرشيد بأرض طوس من بلاد خراسان ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة، وقيل: للنصف منه، وقال ابن أبى مريم فى تأريخه: توفى ليلة الخميس للنصف من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة (٨٠٩م)، وهو ابن أربع وأربعين سنة. ودام فى الخلافة ثلاثا وعشرين سنة وشهرين وستة عشر يوما. أخطأ عليه جبريل بن بختيشوع من دبيلة كانت به فكان ذلك سبب منيته.

قلت: وقد زرت قبره بطوس لما قصدت زيارة قبر الرضى، رضى الله عنه.

ثم صارت الخلافة إلى ابنه الأمين (١)

أبى عبد الله محمد، ويكنى أيضاً أبا موسى، بويع له يوم وفاة أبيه بعهده إليه. لأن أمه زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر الأكبر أول خليفة، اجتمع له فى جده لأمه وأبيه الخلافة، ولم تجتمع لأحد من بنى العباس ذلك إلى الآن، ولا ولى الخلافة بعد على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ من كان أبواه هاشميين إلا الأمين محمد بن زبيدة.

وقتل بالسيف يوم السبت خامس عشر من محرم سنة ثمان وتسعين ومائة (٨١٣م) وقيل: يوم الأحد لثمان بقين من المحرم، وقيل: لخمس ليال بقين من المحرم، بمدينة السلام، وله ثلاث وثلاثون سنة.

وقال ابن واضح الكاتب: كانت سنّه يوم ضرب عنقه مولى طاهر بن الحسين بأمر طاهر سبعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر، وقيل: بلغ ثمانيا وعشرين سنة، وله ولدان موسى وعبد الله.

وكان يركب هواه ويهمل أمر دنياه. ولما خلعه المأمون كان يعيبه بصحبة أبى نواس، ويقول: يا معشر المسلمين صحب رجلاً شاطراً ماجناً كافراً يحلّ ما حرّم الله، يحضّه على شرب الخمور، وإتيان المحذور، وارتكاب المآثم، ونيل المحارم.

وهو الذى يقول:

ألا فاسقنى خمراً وقل لى: هى الخمر ... ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر
وبح باسم من تهوى ودعنى من الكنى ... فلا خير فى اللذات من دونها ستر

وقوله منها:

وبتنا يرانا الله شرّ عصابة ... نجرر أذيال الفسوق ولا فخر

فأين ما رواه مالك فى الموطأ: أن رسول الله ﷺ لما جلد الرجل الذى اعترف على نفسه بالزنا ثم قال: أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، ومن أصاب من هذه القاذورة شيئا فليستتر بستر الله، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله.

(١) انظر: التبر المسبوك لأبى الفدا ٤٦.

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ وهذا حديث مرسل عند جميع رواة الموطأ.

رواه مالك عن زيد بن أسلم ولا أعلمه يستند بهذا اللفظ بوجه من الوجوه، ومن أصل مذهب مالك ـ رحمه الله ـ والذى عليه جماعة أصحابه، أن مرسل الثقة تجب به الحجة، ويلزم به العمل، كما تجب بالمسند سواء.

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنهم يقبلون المرسل ولا يردونه إلا بما يردون به المسند من التأويل والاعتلال على اصولهم المعلومة لهم.

وفيه من الفقه دليل على أن الستر واجب على المسلم فى خاصة نفسه إذا أتى فاحشة، وواجب أيضاً ذلك عليه فى غيره ما لم يكن سلطاناً يقيم الحدود.

والقاذورة: كل ما يتقذر بالشرع ويجتنب والمراد عموم المعاصى.

والحديث المجمع على صحته فى هذا المعنى المتفق على إخراجه حديث سالم بن عبد الله، قال: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل أمتى معافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه.

هذا نص صحيح البخارى فى كتاب الأدب فى باب ستر المؤمن على نفسه. وأخرجه مسلم فى كتاب الزهد والرقائق إلا أن نصه عنده: كل أمتى معافى إلا المجاهرين، وإن من الإهجار أن يعمل العبد بالليل عملاً ثم يصبح قد ستره ربه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه فيبيت يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه.

قال زهير: وإن من الجهار.

قال ذو النسبين ـ أيده الله:ـ رواه النسفى صاحب البخارى: وإن من المجانة، وهو عندهم تصحيف من المجاهرة، وإن كان معناها لا يبعد، لأنها ترجع إلى الاستهتار فى الأمور وعدم المبالاة بما فعل أو قال أو قيل له.

وأما الإهجار ـ وهى رواية العذرى والسجزى فى صحيح مسلم ـ فهو قول

الفحش والخنا، وهو تصحيف من الإجهار وقلب، ورواية ابن ماهان بروايته إلى مسلم عن زهير بن حرب «من الجهار».

ورواية شيوخنا الخراسانيين عن الفراوى عن الفارسى «من الإجهار».

والإجهار فى اللغة والجهار والمجاهرة كله سواء وصواب وهو الإظهار والإعلان يقال: جهر الشىء وأجهر به إذا أعلن به وأظهره، وكله راجع إلى تفسير قوله ﷺ «إلا المجاهرين».

وأما من رواه فى صحيح مسلم « من الهجار» فتصحيف سخيف بدلته العجم وغيرته من قول رسول الله ﷺ لأن الهجار فى اللغة الحبل أو الوتر تشد به يد البعير، أو حلقة يتعلم فيها الطعن، ولا يصح ها هنا لفظا ولا معنى.

واتصل ذلك بالأمين فحبس أبا نواس برأى وزيره الفضل بن الربيع، ثم أطلقه على ما ذكره المؤرخون، فبقى فى الخلافة أربع سنين وسبعة أشهر وعشرة أيام وقيل: واحد وعشرون يوماً [1]، وليس من نسله خليفة إلى الآن.

وكتب طاهر بن الحسين مولى خزاعة إلى المأمون عند قتله الأمين: أتى الله أمير المؤمنين تحفة وسلاما وسلامة أوليائه بوفاة محمد بن الرشيد بما لا دافع له من القضاء، للاستبداد بالتفرد والبقاء وإنفاذ المشيئة فيما أحب من إعزاز وإذلال، وموت وحياة، فلتهن أمير المؤمنين فوائد الله وليعزه عن أخيه ما يؤول إليه أهل الأرض والسماء.

فكتب إلى الخليفة المأمون: لسرورى بالتعزية أعم من سرورى بالتهنئة والسلام.

(١) انظر: تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٤، تاريخ اليعقوبى ٣/ ١٧٢، الكامل ٦/ ١٤٤، مروج الذهب ٢/ ٢٤٧ ـ ٢٦٩، تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٣.

ثم صارت الخلافة إلى الإمام العالم

المحدث النحوى اللغوى أبى العباس عبدالله المأمون المأمون بن الرشيد بويع البيعة العامة بمرو من بلاد خراسان بعد قتل المخلوع الأمين، وذلك يوم الأحد لخمس ليال بقين من المحرم.

وبايع للرضى أبى الحسن على بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بالعهد بعده، وأزال لبس السواد، ولبس الخضرة بدلا منه، وذلك يوم الاثنين لسبع خلون من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين، وسماه الرضى وكتب إلى الآفاق بذلك.

ووافى الكتاب إلى مصر بها إلى أميرها السرى بن الحكم فى المحرم من سنة اثنتين ومائتين، فدعا له بالعهد على المنابر، وذكر ما خصه الله به من الشرف والمآثر: حتى توفى الرضى بطوس، ودفن أمام قبر الرشيد فى أول سنة ثلاث ومائتين. مرض ثلاثة أيام.

وأظهر المأمون عليه جزعاً شديداً، ومشى بين قائمتى النعش حاسراً يقول: إلى من نفزع بعدك يا أبا الحسن ؟. وأقام عند قبره ثلاثة أيام، يؤتى كل يوم برغيف وملح فيأكله وكانت سن الرضى أربعا وأربعين سنة.

ذكر هذا أحمد بن أبى يعقوب بن وهب بن واضح الكاتب فى تأريخه، وابن خداع فى كتاب «المعقبين من ولدأبى طالب» وهو الثانى من بنى العباس ممن اسمه عبد الله وكنيته أبو العباس وإن كان المسعودى ذكر أنه يكنى أبا جعفر. فالمسعودى مجهول لا يعرف، ونكرة لا تتعرف.

وكان المأمون أحلم أهل زمانه، دخل عليه إبراهيم بن المهدى قبل رضاه عنه فقال: يا أمير المؤمنين، ولى الثأر محكم فى القصاص ومن تناوله الاغترار بما مدَّ له من أسباب الرخاء أمن من عادية الدهر، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك. فإن تأخذ فبحقك وإن تعف فبفضلك.

ذنبى إليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا ... فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فعالى ... من الكرام فكنه

فقال: القدرة تذهب الحفيظة، والندم توبة، وعفو الله بينهما، وهو أكبر ما نحاول يا إبراهيم لقد جئت إلى العفو حتى خلت ألا أوجر عليه، لا تثريب عليك يغفر الله لك!

وعفا عنه وأمر برد ماله وضياعه، فقال:

رددت مالى ولم تبخل علىّ به ... وقبل ردك مالى ما حقنت دمى
فأبت عنك وما كافأتها بيد ... هما الحياتان من وفر ومن عدم
وقام علمك بى فاحتجّ عندك لى ... مقام شاهد عدل غير متهم
فلو بذلت دمى أبغى رضاك به ... والمال حتى أسل النعل من قدمى
ما كان ذاك سوى عارية رجعت ... إليك لو لم تهبها كنت لم تلم

وهو أول من انتقل إلى سكن الجانب الشرقى وسكن القصر الحسنى وبنى بأهله به وهى بوارن واسمها خديجة بنت الوزير الحسن بن شهاب.

وكان يجلس مع العلماء والمتعلمين فى مجلسه من أول النهار إلى آخره يتناظرون بين يديه فيرشدهم ويمدهم بالأموال والكتب ويتفقدهم إذا غابوا عنه ويزورهم فى بيوتهم، مع كثرة العطاء والرغبة فى حسن الثناء.

وكان أيضاً يحضر مع الناس على الطعام، ويخرج فى الليل يطوف فى عسكره خوفا على خلافته، لينظر من يحبها أو يبغضها.

وكان يحب معرفة أخبار الناس ويتقصّاها، وعسى أن يفرج كربة ممن يتشكاها، وجعل برسم الأخبار ببغداد ألف عجوز وسبعمائة عجوز، فما كان يخفى عليه شىء من أمور الناس ظاهراً وباطناً، وكان لا ينام حتى يقف على جميعها.

وقد وقّع فى يوم واحد بثلثمائة ألف دينار، وعرض عليه صكاك وقصص فوقع فى جميعها «بنعم» ولم يقل فى واحدة منها «لا» وللشعراء فى ذلك قصائد محفوظة عند الناس، وهو القائل: لو علم الناس ما عندى من حلاوة العفو لما تقربوا إلىّ إلا بالذنوب.

كتب بعض الرؤساء إلى الخليفة المأمون رقعة، وكان قد وعده باستخدامه فطال مقامه ببابه:

إن رأى أمير المؤمنين أن يفك أسير عدته من وثاق المطل بقضاء حاجته، أو الإذن له بالانصراف إلى بلده.

فأعجب المأمون بإيجازه فوقع على ظهرها: يكتب له تقليده، وترغد عيشة أيامه بخمسين ألف درهم جزاء على طول مقامه.

ولما مات عمرو بن مسعدة نظر فيما خلفه من المال، فإذا قيمته ألف ألف دينار فأشير علىّ مخلفيه أن ينهوا الخبر إلى المأمون، لئلا يصل إليه من غيرهم فيجد عليهم بكتمانهم إياه.، فكتبوا إليه رقعة يعلمونه بما خلفه والدهم من المال يسألونه قبول ما اختار منه ليحمل إلى بيت المال.

فوقَّع على ظهر رقعتهم:

إنما اجتهدوا فى خدمتنا، وبالغوا فى نصيحتنا، لنعزَّهم فى حياتهم، ونتكفل بمخلفيهم بعد مماتهم ! وهذا المال وإن كثر لواحد، فإن نقل لجماعة فبارك الله لهم فيه، والسلام.

وما عسى أن يقال فى من خصه الله بهذا النسب، ونشأ من صغره على الاشتغال بالعلم والأدب.

روينا بأسانيد كثيرة أن المأمون هذا كان جالسا بين يدى أبى الحسن الكسائى المقرئ النحوى يعلِّم، إذ حضر غلام صغير، ومعه رقعة مختومة ، فسلمها إلى المأمون، فلما قرأها خرق من وسطها قطعة ووضعها فى فيه، ومضغها وأكلها .

فقال الكسائى: عرفنى السبب الموجب لذلك. فقال المأمون: أسألك إعفائى من الجواب. فقال له : والله لا بدَّ أن تعلمنى بحال الرقعة وما فعلت فيها، فقال فى الحال:

أتانى كتاب فيه وعد زيارة ... وقد كان قلبى نحو ذلك يخفق
فخرقت حرف الوعد ثم أكلته ... وأهديته للقلب لايتعلق

فقام الكسائى من ساعته، واستأذن على هارون الرشيد، وعرفه بما جرى وقال له: يا أمير المؤمنين، هذا عنوان فضل ولدك. فاستحسن البيتين واستظرفهما، وخلع على الكسائى خلعاً فاخرة، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

وله عقب كثير، وليس من نسله خليفة إلى الآن، وكان أمره نافذا من إفريقية المغرب إلى أقصى خراسان ووراء النهر، وولاته بالسند.

وقدم ملك التبت، ومعه صنم من ذهب كان يعبده على سرير من ذهب مرصع بالجوهر، وأسلم الملك، وأخذ المأمون الصنم، فأرسله إلى الكعبة وشكر الله على هداية الملك، وأمره أن يعرف الناس هداية الله تعالى.

وكتب إليه ملك الهند مع هدية نفيسة أهداها إليه:

من دهمى ملك الهند وعظيم أركان المشرق وصاحب بيت الذهب وإيوان الياقوت وفرش الدر، الذى قصره مبنى من العود الذى يختم عليه فيقبل الصورة قبول الشمع، والذى توجد رائحة قصره من عشرة فراسخ، والذى يسجد أمام البد الذى وزنه ألف ألف مثقال من ذهب عليه مائة ألف حجر من الياقوت الأحمر والدر الأبيض، الذى ركب فى السعادة فى ألف موكب وألف راية مكللة بالدر تحت كل راية ألف فارس معلمين بالحرير والذهب، والذى فى مربطه ألف فيل خزائمها أعنة الذهب، والذى يأكل فى صحاف الذهب على موائد الدر، الذى فى خزائنه ألف تاج وألف حلة جوهر لألف ملك من آبائه والذى يستحى من الله أن يراه خائناً فى رعيته إذ خصَّه بالأمانة عليهم والرئاسة فيهم. إلى عند عبد الله ذى الشرف والرئاسة على أهل مملكته.

أما بعد فإن الذى تقدم به ذكرنا،أيها الأخ، من الملك والشرف والثروة، فما خطر مما ترتحل به الأوقات وتنجرّ به الساعات ذهاباً وزوالاً، والخطر الذى يجب على المستودعين من الله فضيلته العقل، والاعتداد به، والمكاثرةله، ولكناجرينا على ماجرت به سنة الملوك قبلنا ولم نجهل أن الله - تبارك وتعالى - الذى تفوت الألسن ذكره، فإن الابتداء بتحميده من أفضل الاعتداد ولكنا أجللناه عن الافتتاح بذكره إلا فى مواقف المناجاة عائذين.

وأخبارك ترد علينا بفضيلة لك فى العلم لم نجدها لغيرك، ونحن شركاؤك فى المحبة والرهبة، وإن فى أفئدتنا من ذلك ما لم نزل به لله للفضل ذاكرين، وقد افتتحنا استهداءك بأن وجهنا إليك كتابا تسميته « صفو الأذهان» والتصفح له يسعد على صواب التسمية وبعثنا إليك لطفاً بقدر ما وقع منا موقع الاستحسان له، وإن كان دون قدرك.

ونحن نسألك أيها الأخ أن تنعم فى ذلك بالقبول، وتوسع عذراً فى التقصير.

وكانت الهدية جام ياقوت أحمر، فتحه شبر فى غلظ الأصبع مملوءا درآ، وزن كل درة مثقال، والعدد مائة، وفراشاً من جلد حية بوادى الديباج تبتلع الفيل، ووشى جلدها نقط سود كالدراهم فى أوساطها نقط بيض لا يتخوف من جلس عليه السلّ، وإن كان به سل، وجلس عليه سبعة أيام برىء، ومصليات ثلاثاً بوسائدها من جلد طائر يقال له: السمندل، موشى إذا طرحت فى النار لم تحترق فراوزها در، ومائة ألف مثقال عود هندى يختم عليها فتقبل الصورة، وثلاثة آلاف مناً من كافور محبب، كل حبة أكبر من اللوزة، وجارية طولها سبعة أذرع، تسحب شعرها، لها أربع ظفائر، طول كل شفر من أشفارها إصبع يبلغ إذا أطرقت نصف خدها، ناهداً، لها ثمانى عكن، فى نهاية الحسن والجمال ونقاء البياض.

وكان الكتاب مكتوباً فى لحاء شجرة تنبت بالهند يقال لها: الكاذى، لونه إلى الصفرة، والخلط لازورد مفتح بذهب.

قوله فى الهدية: «طول كل شفر من أشفارها » «شفر العين» مضموم الشين، ويقال بفتح الشين أيضاً، وهو حرف الجفن حيث ينبت الهدب.

فأجابه المأمون: من عبد الله عبد الله الإمام المأمون، أمير المؤمنين، الذى وهب الله له ولآبائه الشرف بابن عمه النبى المرسل - ﷺ وأعلى ذكره - والتصديق بالكتاب المنزل.

إلى ملك الهند وعظيم من تحت يده من أركان المشرق:

سلام عليك، فإنى أحمد الله إليك، الذى لا إله إلا هو وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله وعلى أهل بيته.

وصل كتابك فسررت لك بالنعمة التى ذكرت، ووقع إتحافك إلينا الموقع الذى أملت من قبول ذلك، ولولا أن السنة لنا جارية بترك تقديم من لم يكن لنا على الشريعة مواليا، ما تركنا ما يحسن من مبرتك بالتقديم والاعتذار، فهذا أحد المقدمتين، وأنت له منا أهل. وقد أهدينا إليك كتابا ترجمته (ديوان الأدب وبستان نوادر العقول)، ومطالعتك له تحقق عندك فضيلته. وجعلنا لذلك عنوانا من الهدية، فهى لطف استقللنا قدرها لك، ولو كانت الملوك تتهادى على أقدارها لما اتسعت لذلك خزائنها، وإنما تجرى ذلك بينها على قدر ما يدل على النية بالتوطين إن شاء الله.

وكانت الهدية فرساً بفارسه وجميع آلاته عقيقا، ومائدة جزع فيها خطوط سود وحمر وخضر على أرض بيضاء، فتحها ثلاثة أشبار، وغلظها إصبعان، قوائمها ذهب، وثمانية أصناف بياض مصر، وخز السوس، ووشى اليمن، وملحم خراسان، والديباج الخسروانى، وفرش قرمز، وفرش سوسنجرد، ومائة طنفسة حيرية بوسائدها.

كل ذلك مائة قطعة من كل صنف.

وجام زجاج فرعونىّ، فتحه شبر، وفى وسطه صورة أسد، أمامه رجل قد برك على ركبتيه، وفوّق السهم فى القوس نحو الأسد، وكانت المائدة والجام مما أخذ من خزائن بنى أمية، وكان الكتاب فى طومار ذى وجهين، وغلظ الخط إصبع.

وذكر هذا كله الخالديان: أبو بكر محمد وأبو عثمان أحمد ابنا هاشم فى كتاب «الهدايا والتحف» من تأليفهما، وحدثا بذلك عن أبى العباس أحمد بن أبى خالد عن أبيه عن جده أحمد بن أبى خالد وزير المأمون.

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ : والناظر فى كتاب المأمون يعلم أنه قاصر عن كتاب ملك الهند فى الجواب، ولقد كان الواجب عليه أن يقابله على افتخاره بملكه، ويدخل عليه فى الفخر من كل باب، لأنه افتخر بأمر دنيوى، وملك لا يبقى، وكان للمأمون من الفخر بالآخرة وسلالة النبوة فخر صاحبه لا يشقى، وغيره لهذا الفخر لا يرقى.

فكان يكتب:

من عبد الله، عبد الله المأمون أمير المؤمنين، سلالة أهل البيت الطاهرين، أهل مهبط الوحى، ومصعد الأمر والنهى، ومدار أفلاك العلاء، ومزار أملاك السماء، وموطن التنزيل، وموطئ الروح الأمين جبريل، ومقر الخلافة والإمامة، وموضع الكرامة، ولنا تحج ملوك الأرض، وذلك واجب عليهم وجوب الفرض، فاز شرفنا بالسبق وفات، وهيهات أن يدرك شأونا هيهات. وكل ذلك ببركة ابن عمنا، الذى بالبركة عمّنا، الإسماعيلى النسب، الإبراهيمى المنتسب، المنيف الطرفين، الشريف السلفين، المتلقى بالرسالة والمنتقى للآداء والدلالة، المبعوث إلى الأحمر والأسود، سيد ولد آدم وما ولد من ولد، الذى أيد بكتاب أنزل من الملكوت الأعلى عليه، وأوصل على يدى الروح الأمين إليه، أعجز الإنس والجن حين تحداهم برهانه، وأعجب الجن لما سمعوه منه بيانه، فيه تبيان كل شىء وتفصيله، وبرهان كل مشكل ودليله، قد فصلت آياته بتقديس وتوحيد، ووعد ووعيد، حكم وإحكام، ونقض وإبرام، وقصص وأخبار، وسير وأسرار، والحضّ على العمل الذى هو سبب دخول الجنة، والتحذير من العمل الذى هو سبب دخول النار، فهو بحر لا تفنى عجائبه، ولا تنفد غرائبه.

والذى بشرت به الأنبياء، وهتف بمبعثه الكهان، وقام على صدقه البرهان، ورد الله ببركته عن مكة الفيل، وأرسل على الملك الذى جاء به وعلى أصحابه طيرا أبابيل.

والذى خمدت ليلة مولده نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وكانت تعبدها المجوس كعبادة الكفار للأوثان والأصنام، ورأت أمه حين ولدته نورا أضاء لها قصور بصرى من أرض الشام، وانشق إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وهو القصر الأبيض الباهر بحسنه أبصار المبصرين، ونزلت الملائكة من الأفق المبين، ورجمت بالشهب جميع الشياطين، وغاضت بحيرة ساوة وذهب ماؤها المعين، وفاض وادى السماوة، آية حصل بها لمن خامره الشك اليقين.

والذى تظلله ظلل الغمام، وتخاطبه البهم بفصيح الكلام، وتسلم عليه النبوة الأحجار، وتسجد له الأشجار، ويدعو الشجر فيأتى إليه، ثم يأمره بالرجوع فيرجع سامعاً مطيعاً بقدرة من أعانه عليه، ويسبح الطعام عند أكله له، وذلك آية خصه الله بها وفضله.

والذى أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلاً، وجرر على المجرَّة فى درج المعراج ذيلاً، على دابة يقال لها البراق، ولا يستطاع ركوبها ولا يطاق، إلا لمن سخرها له الإله الخلاق، حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، وهى فى السماء السابعة، حيث تعنو وجوه الملائكة الطائعة، ويغشاهم سنى الأنوار الساطعة.

فسار ـ ﷺ ـ مسيرة سبعة آلاف سنة، صاعداً ونازلاً فى بعض ليلة بجسده وروحه دون نوم ولا سنة، واستوى بمستوى يسمع فيه صريف الأقلام على الألواح، وعاد إلى مضجعه عندما كاد جبين الشرق يرشح بنور الصباح، وأصبح يحدث بأخبار الملكوت فى أم القرى، سنده عن حافظ ما كذب الفؤاد ما رأى، أفتمارونه على ما يرى ؟

والذى انشق له القمر المنير، ونبع من بين أصابعه مراراً عدة الماء النمير، وزكا بيمن يمينه الطعام اليسير، فأكل منه الجمّ الغفير، وقد جعل الله فى كل عضو منه آية، وذلك دليل على مكانه عند ربه وإن له به عناية.

والذى حذره الذراع المسموم عن أكله، ثم لم يعد عليه بعدما أكل منه لقمة لعصمة الله له فى ذلك كله.

والذى حن الجذع اليابس إليه وسمع له صوت كأصوات العشار،وهذه آية نظرت بعين الصحة وطارت بجناح الانتشار، ورجف به وبخلفائه الجبل، فركضه برجله وقال: اسكن. فسكن وامثل، وبث له شكواه الجمل.

والذى قرن الله تعالى اسمه باسمه وأعلن به فى الدنيا فى كل مكان، وأجرى ذكره بأنواع المحامد على لكل لسان.

والذى كان ينصر ويؤيد فى الحروب، بريح الصبا وهى ذات الهبوب، فهزمت ليلة الأحزاب جميع أعدائه، وكانوا قد حاصروه فى عدة ألوف، فاقتلعت الخيام وأكفأت القدور وزحزحت جميع الصفوف، ونصر بالرعب مسيرة شهر بين يديه، ونزلت السكينة من الله عليه، وانكسر سيف عكاشة بن محصن يوم بدر فأعطاه عرجوناً أوعوداً فصار بيده سيفا يومئذ يفرى الجماجم، يبرى الأعضاد والبراجم، وكذلك انقطع سيف عبد الله بن جحش يوم أحد فأعطاه رسول الله ﷺ ـ عرجونة نخلة فصار فى يده سيفا يقال: إن قائمة منه، ولم يزل يتناول حتى بيع من بغاء التركى بمائتى دينار، وهذه معجزة قد بقيت بعد رسول الله ﷺ وهى واضحة المنار.

والذى خصه الله بالحوض والشفاعة، وأخبر بما كان ومايكون إلى يوم قيام الساعة. وهذا الحوض هو نهر الكوثر المنقعم الملآن، الذى مساحته من بصرى إلى عمان، أو من صنعاء إلى عمان، وماؤه أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل فى المذاق، وأباريقه على عدد نجوم السماء ذوات الإشراق.

والذى زوى الله له الأرض فأراه مشارقها ومغاربها، وأعطاه كنوزها ومطالبها، وأخبره ـ جل وعلا ـ أن ملك أمته سيبلغ ما زوى له منها، ولقى ربه ـ جلت قدرته ـ وهو معرض إعراض الزاهد عنها، وقبض ﷺ بعد أن خيّره الله فى الدنيا فاختار لقاء ربه، ولرغبته فيما لديه وحبه، فجمع الله له بين ملك الدارين: الدنيا والآخرة وأسبغ عليه جزيل النعمتين: الباطنة والظاهرة، وكسر بدعوته شوكة الأكاسرة، وجبر الدين وقصم ظهور الجبابرة، ففشت دعوته فى المشارق والمغارب كما وعد وشاعت، وأخبر عن الله ـ عز وجل ـ أنه يستخلف فى أرضه من آمن به، فكان ذلك كذلك، وهذه معجزة راعت، فاستخلف الله أصحابه وأهل بيته من بعده فسمعت الأمة لهم وأطاعت، فكانوا خلفاء الخلق، وفتحة الغرب والشرق، يقاتلون عبدة الأوثان والنيران عزلاً، ويسوق الواحد منهم الألف كما يساقون يوم القيامة حفاة عزلاً، وطارت قلوب الملوك رعباً منهم وطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفاً من ذكر محمد ﷺ وجاشت، وتمنت إلى زمنه ما عاشت، فبهذا النبى الأمى أفاخر من تفخر، وأكاثر من تقدم وتأخر، صلى الله على عدد الرمل، ومدد النمل، وعلى أهل بيته الكريم، وأصحابه الجدراء بالتقديم والتعظيم.

إلى (دهمى) عظيم عظماء الهند، وركن أراكنة السند، شرح الله صدره للإسلام، وجعله ممن دعاه إلى دار السلام، واتبع سبيل المؤمنين، وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (١)

أما بعد فإنه وصل كتابك جالياً عرائس خصائصك علينا، وجالباً نفائس خصائلك إلينا، ففضضنا عن الجواهر منه ختاماً، وأمطنا عن الأزاهر كماماً.

واستجلينا من معانيه ما لو كانت خدوداً لكانت مضرجة، أو ثغوراً لكانت مفلجة،

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٩.

واستدللنا بفحوى خطابه على ما تضمره لنا من مودة لا كذب فيها ومحبة نيطت بعرا الصدق أواخيها.

فأما ما صدرته فى كتابك من تعظيم ملكك ونفيس ذخائرك، وطيب رائحة قصرك، وفخرك وفخر آبائك، فإنك فخرت بأعراض الجواهر الفانية القليلة البقاء، وزخارف الدنيا التى لا يحصل الواثق بها على غير النصب والشقاء، وملكها وإن عظمك دوامه، سحابة صيف، ومالكها وإن طال مقامه، فعجالة ضيف.

فإنا لا نفاخرك بأمثاله مما ملكناه من سهل الأرض وجبالها، واحتوت عليه خزائننا مما أخذناه بسيوفنا من ذخائر الملوك وأموالها.

وإنما الفخر بتقوى الله وطاعته، والإيمان بهذا النبى الأمى خاتم الأنبياء، وأفضل من مشى تحت السماء، والتزام شريعته، والعدل فى الرعية والحكم بالسوية، بين القوى والضعيف، والشريف والمشروف، وذلك التزام شريعة رسول الله ﷺ والعمل بمقتضاها، وأنه نتقى كتابا عند الله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

فكيف كفيت عمه البصيرة إذا سطع نور البرهان، جنحت على ما أوتيت من فطنة ذكية وفطرة زكية إلى عبادة الأوثان ؟ واتخذت البد المصنوع لصانع المصنوعات نداً ؟ ولم ترلك منه تقليدا لمن سلف من الآباء بدا؟

وأنا أدعوك دعاء المشفق الناصح، إلى سلك السنن الواضح وخلع الأنداد، ومفارقة ديانة الأبداد[1]، والتوجه لمن وجه وجهه إليه إبراهيم الخليل، وقام على وجوده ووجوب وحدانيته الدليل، وزين السماء الدنيا بزينة الكواكب، وأظهر فى الأرض أنواع العجائب، والإقرار بنبوة من ظهرت على يديه ما ذكرناه آنفاً من الآيات الخارقة للعادات، فإنه لا يسمع به أحد ولم يؤمن به إلا كان من أصحاب النار، وحقت عليه كلمة العذاب فى دار البوار، فأسلم أيها الملك تسلم، ويكن لك ما لنا، وعليك ما علينا فإن إسلامك إن منّ الله عليك به من أسنى التحف الواصلة إلينا.

---

(١) جمع البد على الأبداد موافقاً لما فى القاموس.

وأما ما أتحفتنا به من هدية، وأطرفتنا به من طرفة سنية، فما آتانا الله خير ما آتاكم بل، أنتم بهديتكم تفرحون، إلا أنا اتباعا لنبينا ﷺ فى قبوله للهدية، لما جبله الله عليه من الخلق الكريم، وطمعا فى أن يهديك الله بلطفه للصراط المستقيم قابلناها بالقبول، وثنينا عنان النظر إليها، واقتدينا بابن عمنا ﷺ فى الإثابة عليها، وبعثنا إليك كتابا يسمى (بستان الألباب) يفتر عن جواهر الحكم وزواهر الآداب، و مطالعتك له تطلعك على أن اسمه لمسماه موافق، ونعته لمعناه مطابق، وشفعناه بما تيسر تناوله علينا، من الخزائن الحاضرة لدينا، معتذرين لديك من التقصير، ومقابلة مجلسك بالنزر الحقير، ولكن الملوك لو تهادت على قدر أقدارها، وعظم أخطارها، لضاقت عن ذلك متسعات أحوالها، وفنيت بيوت أموالها، وإنما الهدية وإن قلّت دليل الاحتفال بالمهدى إليه والاهتبال.

والسلام على من اتبع الهدى وقال: إننى من المسلمين، والحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطاهرين الطيبين،وعلى أصحابه أجمعين، والسلام عليه وعليهم إلى يوم الدين.

وقدم المأمون مصر سنة سبع عشرة ومائتين، فنزل قبة حاتم بن هرثمة التى على الجبل، ووجه فى محاربة الذين خرجوا عليه ؛ فهزموا وقتلوا ؛ ثم خرج بنفسه إلى قفط وغيرها من بلاد الصعيد فقتلهم وسبى ذراريهم.

ولما وقف على مدينة منف وعين شمس، وكان قد اطلع على التواليف التى ألف الناس فى فضل بلاد مصر وأنها كانت فى أيام القبط والفراعنة قناطر وجسوراً بتقدير وتدبير حتى أن الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا فذلك قوله جل من قائل فيما حكى من قول فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾(١).

ولم يكن فى الأرض يومئذ ملك أعظم من ملك مصر، وكانت الجنات بحافتى النيل من أوله إلى آخره فى الجانبين جميعا ما بين أسوان إلى الرشيد وسبعة خليج وغير ذلك مما ذكره عبد الرحمن بن شماسة، الثقة العدل، عن أشياخ مصر وهو

(١) سورة الزخرف الآية ٥١.

أرض يسمى فيها القيراط: فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً. أو قال: ذمة وصهراً فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها فى موضع لبنة فاخرج منها. قال: فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه يختصمان فى موضع لبنة فخرجت منها.

فائدة

أبو بصرة هذا بباء بنقطة من أسفلها، روى عن أبى ذر: وأبو نضرة العبدى، بنون وضاد معجمة، عن أبى سعيد، وفيه العلم العظيم من أعلام نبوته ﷺ وهو إخباره بالشيء قبل كونه، وقد ألف الناس فى فضائلها، وإن كل قرية منها هى مدينة فى نفسها، وتصديق ذلك قول الله - عزّ وجل: - ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾(١) وكلها فى الماء مع من كان فيها من الأنبياء.

وخرج الخليفة المأمون سنة ثمانى عشرة إلى بلاد الروم غازياً، وتوفى بها على مقربة من طرطوس، بموضع يقال له: البذندون، ليلة الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب، وهو ابن ثمان وأربعين سنة وقيل: فى النصف من رجب، سنة ثمانى عشرة ومائتين، ودفن بطرطوس.

وحدثنا غير واحد من شيوخنا - رحمهم الله - قالوا: حدثنا الإمام العالم العامل الزاهد أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد الفهرى الطرطوشى - رحمه الله - قال فى تأليفه (سراج الملوك): ودخل على المأمون فى مرضه الذى مات فيه فإذا هو قد أمر أن يفرش له جل الدابة، ويبسط له عليه الرماد، وهو راقد عليه يتضرع وهو يقول: يا من لا يزال ملكه، ارحم من يزول ملكه.

وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار. تفرد البخارى بإخراجه فى صحيحه، فقال فى باب من اغبرت قدماه فى سبيل الله حدثنا إسحاق قال: أخبرنا محمد بن المبارك، قال: حدثنا يحيى بن حمزة قال: حدثنى يزيد بن أبى مريم قال: أخبرنى عباية بن رفاعة بن رافع قال: اخبرنى أبو عَبْس أن رسول الله ﷺ - قال: الحديث، وخرجه أيضاً فى باب المشى إلى الجمعة فقال: حدثنا

(١) سورة الشعراء الأية ٣٦.

على بن عبد الله قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: حدثنا يزيد بن أبى مريم، قال: حدثنا عباية بن رفاعة، قال: أدركنى أبو العباس وأنا أذهب إلى الجمعة، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار»، إسناد كالشمس»(١).

قلت: «يزيد» بفتح الياء المثناة شاميّ، ويشتبه به يزيد أبى مريم بضم الباء بواحدة وهو كوفى وأبو عبس: عبد الرحمن بن جبر الحارثى من بنى الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس، شهد بدراً، وكانت سنه إذ شهدها ثماني وأربعين سنة أو نحوها. وتوفى سنة أربع وثلاثين من الهجرة وهو ابن سبعين سنة، ويقال: إنه كان يكتب بالعربى قبل الإسلام وهو أحد من قتل كعب بن الأشرف عدو الله وعدو رسوله.

فكانت مدة خلافة المأمون منذ يوم سلم عليه بالخلافة فى حياة المخلوع اثنتين وعشرين سنة، ومنذ قتل المخلوع وانفرد بالخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة، وقيل: خمسة وعشرين يوما.

(١) صحيح البخارى ج ٢ص ٨٧ طبعة أحمد البابى الحلبى بمصر وهى طبعة الميمنية سنة ١٣١٢هـ

ثم صارت الخلافة إلى المعتصم بالله

أخيه أبى إسحاق محمد بن الرشيد يوم الخميس بنص المأمون عليه دون أولاده لرؤيا رآها من النبى ـ ﷺ ـ وكان المعتصم معه فى تلك الغزاة، لأنه كان يلازمه وقد ولاه المأمون مصر، ثم وشى به القاضى يحيى بن أكثم فعزله عن مصر فلم يزل يلازم الخدمة حتى قلده الخلافة، والعجيب أن أباه الرشيد كان أخرج المعتصم من الخلافة وولى الأمين والمأمون والمؤتمن فساق الله الخلافة إلى المعتصم وجعل الخلفاء إلى اليوم من ولده، ولم يكن من نسل أولئك خليفة إلى اليوم، فالله يفعل ما يريد، وحج المعتصم وغزا غزوات عظيمة، فأعظمها فتح عمورية، وهى أعظم مدن النصارى بعد القسطنطينية فإنه لما بويع بالخلافة أناخ عليها وحاصرها حصاراً شديداً، ولم يكن فى بنى العباس مثله فى القوة والشجاعة والإقدام. قيل: إنه أصبح ذات يوم برد عظيم وثلج فلم يقدر أحد على إخراج يده ولا إمساك قوسه فأوتر المعتصم فى ذلك اليوم أربعة آلاف قوس وما زال يحاصرها حتى فتحها عنوة واحتوى على ما فيها من الأموال وغيرها وأخذ أهلها أسرى. ونقل بابها إلى بغداد وهو اليوم على باب العامة من دار الخلافة، وعدد الفاتحين لها أزيد من ثلثمائة ألف رجل، وفيه يقول حبيب بن أوس الطائى:

يا يوم وقعة عمّورية انصرفت ... عنك المنى حفلاً (١) معسولة الحلب

لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على ... بان بأهل، ولم تغرب على عزب (٢)

كرر إنشادها ثلاثة أيام فقال له: إلى كم تجلو علينا عجوزك ؟ فقال حبيب: حتى أستوفى مهرها يا أمير المؤمنين. فأمر له باثنين وسبعين ألف درهم نقرة. عن كل بيت

(١) حفلاً : مملوءة ، وشاة محفلة إذا نزل لبنها أياما فى ضرعها ، وتحفلت هى ، ويقال : ضرع حافل ومجلس حافل . أى : مملوء بالجمع . والحفل كثرة الناس وجماعهم ، وهذا مثل، ضربه لبلوغ الأمانى وتمامها ومعسولة خلوها (هامش الأصل).

(٢) أى لم تترك من كان بنى بأهله لأنه قتل ولم يبق فى هؤلاء عزب لأنهم وطئوا السبى،والبناء الدخول ، وكان أصله أن الرجل كان يبنى على المرأة إذا دخل بها قبة ثم كثر حتى سموا الدخول بناء وأصله للعرب فى بيوت الوبر وهى الأبنية عندهم (هامش الأصل).

ألف درهم، بالدرهم المعروف، الذى يجب القطع منه فى ثلاثة دراهم وهو الدرهم الشرعى(١).

ومن كرمه الخارج عن الحد، المستغرق للإحصاء والعد، أنه أقطع مدينة الموصل لحبيب بن أوس الشاعر، وهذا شيء لم يتقدمه إليه أحد من الأوائل ولا الأواخر، فالحمد لله الذى خص قرابة رسول الله ﷺ بهذه المفاخر.

وله ثمانية فتوح، وبنى سر من رأى، وأنفق على جامعها، فيما يقال، فوق الخمسمائة ألف. وهو أول من انتقل من الخلفاء إلى سر من رأى وبناها وأتخذها دار ملكه وسدة خلافته، فى سنة اثنتين وعشرين ومائتين، وسميت بذلك لأن المعتصم لما انتقل بجملته وعساكره إليها سرّ كلٌ منهم برؤيتها فقيل سرّ من رأى . ولزمها هذا الاسم، والمسمى بالجملة عند النحويين يحكى على صيغته الأصلية من غير تحريف فيها ولا تغيير لها، وقد غيرتها العامة فقالوا سامراء، وقد قلدهم البحترى - رحمه الله - فقال فى صلب بابك:

أخليت منه البذ وهى قراره ونصبته علماً بسامراء

فوهم فى ذلك وأخذ عليه. وإنما هى كما أنشد دعبل الخزاعى فى ذمها يفضل بغداد عليها:

بغداد دار الملوك كانت حتى دهاها الذى دهاها
ما سرّ من رابسرّ من را بل هى بؤسى لمن رآها

(١) كان قد جرى توحيد الدراهم أيام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ومثله الدينار . فإن وزنهما كان مختلفاً ، فضرب وزن كل عشرة دراهم سبعة دنانير ، فاستقر وزن الدرهم الشرعى كما تعين وزن الدينار ، وذلك فى سنة ٢٠هـ-٦٤١م إلا أن التعديل لم يمنع من تداول النقود الموجودة لما بعد ذلك التاريخ وجريان التعامل بها فالدرهم الشرعى ١/ ١٠ مما يزن ٧ مثاقيل ، وثلاثة منه يجب قطع يد السارق منها ، ثم تغير وزن الدرهم والدينار فى حوادث معلومة ، فصار يفرق بين الشرعى والمتعامل عليه .

حذف الهمزة لإقامة الوزن.

وكان السبب فى بنائها أن العامة شكوا إليه من الجند والنزول عليهم فى المساكن والتعرض بهم فقال له بعض صلحاء المحدثين: ياأمير المؤمنين إنى لآمن عليك أن يقاتلك العامة. فقال له: ولم تقاتلنى العامة؟ ومن يجمعها على ذلك وأنا فى هذا العسكر العظيم؟ فقال له: يقاتلونك بسهام الليل ورفع الأيدى إلى الله - تعالى - فى المساجد. فركب فى الحال وتخير موضع سرّ من رأى على شاطئ دجلة. فبنيت فى أسرع وقت على كبرها، وارتّحل إليها وقال لذلك المحدث: قد تركنا قتال العامة فكيف هم اليوم؟فقال: ياأمير المؤمنين، هم بأيد مبسوطة إلى الله- تعالى- بالدعاء، بنيّات خالصة، وطاعة صافية، رغبة إلى الله ـ تعالى ـ فى دوام دولتك.

واتسع ملكه جداً حتى صار له سبعون ألف مملوك سوى الأحرار، ومن الخيل مالايحصى، وكان أمياً لايقرأ ولايكتب ضد أخيه.

وهو الذى امتحن أحمد بن حنبل فى خلق القرآن. قال: أحمد أنا (*) رجل علمت علماً ولم أعلم فيه بهذا: فأحضر له الفقهاء والقضاة فناظروه. منهم عبدالرحمن بن إسحاق وغيره فامتنع من أن يقول، فضربه عدة سياط، فقال إسحاق بن إبراهيم: ولّنى ياأمير المؤمنين مناظرته. فقال: له شأنك !فقال له إسحق هذا العلم الذى علمته نزل به عليك ملك أو علمته من الرجال؟ قال: بل علمته شيئاً بعد شئ. قال: فبقى عليك شيء لم تعلمه؟ قال: بقى علىّ. قال فهذا ممالم تعلمه وقد علمكه أمير المؤمنين. ثم ذكر أحمد بن أبى يعقوب بن واضح فى تأريخه أنه قال بقول أمير المؤمنين المعتصم، فأشهد عليه، وخلع عليه، وأطلقه إلى منزله

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ وهذا لايصح. وهى حكاية مفتعلة من بعض سفلة المعتزلة. والصحيح ماذكره ثقات علماء التأريخ، منهم القاضى الإمام أبو بكر أحمد بن كامل بن شجرة، تقدم سندى إليه أنه ضرب فى المحنة، سنة سبع وعشرين ومائتين، ضربه المعتصم، ومنعه الواثق من الخروج، فجعل داره له حبساً، وأخرجه المتوكل، وخلع عليه وأكرمه ورفع المحنة فى القرآن. وأسند الحافظ أبو نعيم فى كتاب

(*) اختصار كلمة انبانا.

«الحلية» ـ وقد تقدم سندى إليه ـ محنة الإمام أحمد بأسانيد الثقات إلى ابنه القاضى بمدينة أصبهان أبى الفضل صالح.

قال: وكان المأمون طلبه وأمر بحمله إلى طرسوس. قال القاضى أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل: فحمل أبى ومحمد بن نوح زميلين، وأخرجا من بغداد،فصرنا معهما إلى الأنبار، فسأل أبو بكر الأحول أبى فقال: يا أبا عبدالله، إن عرضت على السيف تجيب؟فقال: لا.

قال أبو الفضل صالح بن أحمد: فصار أبى ومحمد بن نوح إلى طرسوس، وجاء نعى المأمون من البذندون، فردّا فى أقيادهما إلى الرقة، وأخرجا من الرقة فى سفينة مع قوم محبّسين، فلما صارا بعانات توفى محمد ابن نوح ـ رحمه الله ـ فتقدم أبى فصلى عليه ثم صار أبى إلى بغداد وهو مقيد فمكث بالياسرية أياماً، ثم صيّر الى الحبس فى دار أكتريت عند دار عمارة، ثم نقل بعد ذلك الى حبس العامة فى درب الموصلية، فمكث فى السجن منذ أخذ وحمل إلى أن ضرب وخلّى عنه، ثمانية وعشرين شهراً.

ولما أحضره المعتصم وكلمه فى القول بخلق القرآن، أبى، فأمر به فخلع وسحب وجئ بعقابين من خشب وأقيم بين العقابين، ولم يمسك بهما فتخلعت يداه.

قال أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل ولم يزل أبى ـ رحمه الله ـ يتوجع منهما من الرسغ إلى أن توفى.

ثم قال المعتصم للجلادين: تقدموا فنظر إلى السياط فقال: ائتوا بغيرها. ثم قال: تقدموا فقال لأحدهم: أدنه وأوجع ـ قطع الله يدك!، فتقدم فضربنى سوطين، ثم تنحى فلم يزل يدعو واحداً بعد واحد فيضربنى سوطين، ثم ينحى.

ثم قام حتى جاءنى وهم محدقون به فقال: ويحك ياأحمد، تقتل نفسك ؟ ويحك أجبنى حتى أطلق عنك بيدى. قال: فجعل بعضهم يقول لى: ويحك إمامك على رأسك. وجعل عجيف ينحينى بقائم سيفه ويقول: تريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟

قال: وجعل إسحاق بن إبراهيم يقول: ويلك! الخليفة على رأسك !قال: ثم يقول بعضهم ياأمير المؤمنين، دمه فى عنقى.

قال: ثم رجع فجلس على الكرسى، ثم قال للجلاد أدنه، شدّ- قطع الله يدك ! ثم لم يزل يدعو بجلاد بعد آخر فيضربنى سوطين ويتنحى، وهو يقول له: شدّ- قطع الله يدك.

ثم قام إلى الثانية فجعل يقول: ياأحمد أجبنى! فجعل عبد الرحمن بن إسحق يقول لى: من صنع بنفسه من أصحابك فى هذا الأمر ماصنعت ؟هذا يحيى بن معين وهذا أبو خثيمة ! وابن أبى إسرائيل وجعل يعدّد على من أجاب وجعل هو يقول: ويحك، أجبنى! قال: فجعلت أقول نحواً مما كنت أقوله لهم.

قال: فرجع فجلس ثم يقول للجلاد: شدّ- قطع الله يدك! قال أبى:فذهب عقلى، وماعقلت إلا وأنا فى حجرة مطلق عنى الأقياد. وكان يوم ضرب مقيداً بأربعة أقياد.

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ والكلام طويل ـ: ثم وجه إليه برجل من السجن ممن يحسن الجراحات ويعالجا فنظر إليه فقال: أما والله، لقد رأيت من ضرب ألف سوط مارأيت ضرباً أشدّ من هذا. إلى أن يقول: ثم جاء بحديدة وسكين، فجعل يعلق اللحم بها ويقطعه بسكين معه وهو صابر يحمد الله. ذكر ذلك كله الحافظ أبو نعيم فى «الحلية». ، وقد تقدمت أسانيدى إليه بسنده الثابت فيها إلى ابنه.

ولما حمل إلى المعتصم فكلموه فى القرآن استدلّ بقول الله تعالى «ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» فقال: إن يكن القول من الله فالقرآن كلام الله ـ تعالى ـ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (١) فقد فرق بين الخلق والأمر.

قال القاضى أبو الفضل صالح بن أحمد- وقد تقدم سندى إليه-: قال أبى: وأسماء الله فى القرآن. والقرآن من علم الله. فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر. ومن زعم أن أسماء الله مخلوقة فقد كفر.

واستدل أيضاً بقوله ـ تعالى ـ:﴿إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٢) فلو كان قوله«كن» مخلوقاً لاحتاج إلى قول آخر، وذلك القول إلى آخر، فيتسلسل ولايتحصل.

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٤

(٢) سورة البقرة الآية ١١٧

وكان يقول أعطونى آية من كتاب الله- عزّوجلّ- أوسنّة عن رسول الله ـ ﷺ ـ حتى آخذ بها. فقال له ابن أبى دؤاد: ما تقول فى قوله- عزّوجل-:﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (١) فقال أحمد:الجعل فى القرآن على وجوه، وها هنا ليس معناه وإنما معناه الخلق وإنما معناه أنزلنا بلسان العرب، قال الله- تعالى -:﴿قرآناً عربياً غير ذى عوج﴾(٢).

قال ابن عباس: غير مخلوق. وقال- جلّ من قائل-:﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾(٣) أفخلقهم؟حدثنا غير واحد من شيوخنا - رحمهم الله- منهم الثقة مختص الدين أبو المكارم أحمد بن محمد، إذناً عن أبى علىّ الحداد إجازة إن لم تكن سماعاً وإجازة من غانم البرجىّ: قالا: حدثنا الحافظ أبو نعيم، قال:حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا إبراهيم بن محمد بن إبراهيم القاضى الأبذجىّ بها، حدثنى أبو عبد الله الجوهرىّ، حدثنى يوسف بن يعقوب بن الفرج قال: سمعت على بن محمد القرشى، قال: لما قدّم أحمد بن حنبل ليضرب بالسياط، أيام المحنة، وجرد بقى فى سراويله فبينما يضرب إذانحل السراويل فجعل يحرك شفتيه بشئ، فرأيت يدين خرجتا من تحته وهويضرب فشدتا السراويل، قال: فلما فرغوا من الضرب قلنا له: ماكنت تقول حيث انحل السراويل؟قال: قلت يامن لايعلم العرش أين هو إلا هو، إن كنت أنا على الحق فلاتبد عورتى. فهذا الذى قلت.

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ: وإسناد أبى نعيم ظلمات بعضها فوق بعض، ولو صحت هذه الحكاية لكانت من جملة الكرامات التى لاتنكر أمثالها للصالحين خلافاً لأهل البدع الزائغين، ولكانت تشيع وتنتشر، وتتواتر على ألسنة العدول وتشتهر، وكانت تكون سبباً لرجوع الخليفة إلى مايعتقد أحمد بن حنبل من حنبل قدم القرآن على ماذهب إليه أهل السنة والإيمان.

وعقيدة أهل السنّة والجماعة أن القران كلام الله ـ عزّوجلّ ـ، صفة ذاته، هو ـ سبحانه ـ متكلم به، نزل به جبريل على رسول الله ـ ﷺ ـ فوعاه عنه، وبلغه بلسانه العربى، وأنه فى المصاحف مثبوت، وفى القلوب محفوظ وبالآذان مسموع،

(١) سورة الزخرف الآية ٣
(٢) سورة الزمر الآية ٢٨
(٣) سورة الفيل الآية ٥

وبالأصوات متلوّ، وبالأفهام مفهوم،وبالحروف والأشكال والأصباغ مخطوط وبالألفاظ مقروء.

فمكتوبه ومخطوطه ومسموعه ومتلوّه ومفهومه ومحفوظه ومقروءه حقيقة كلام الله ـ عزّوجلّ ـ غير محدث ولامخلوق ولا مجعول، وأن الكتابة والحفظ والسمع والفهم والأصوات والحروف والأصباغ والأشكال والألفاظ والظروف والأوعية محدثة كائنة بعد أن لم تكن، مختلفة متغايرة فانية زائلة. وكلام الله ـ عزّوجلّ ـ باق واحد ثابت لايزول ولايحول، ولايبدل مايقول، وأن القرآن الذى أنزله الله على رسوله- ﷺ لايغسله الماء،كما ثبت من حديث عياض بن حمار المجاشعى، أخرجه مسلم فى صحيحه وغيره،وأشكال الحروف مغسولة ممحوة.

وهذه عقيدة الصحابة والتابعين، وأهل السنّة والجماعة من علماء المسلمين. فمن أظلم ممن جعل مع الله ثمانية وعشرين شكلاً هي صورة الحروف وبآياتها مصورون وبأصباغهم وألوانهم يخطون وزعموا أنها قديمة مع الله- تعالى - وتقدس عن مايقول الظالمون ! ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١).

ومات الخليفة بسرّ من رأى،يوم الخميس، لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول،سنة سبع وعشرين ومائتين (٨٤١م) وصلى عليه ابنه هارون، ودفن فى قصره المعروف بالجوسق؛ وبقى فى الخلافة ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، وقيل: وثلاثة أيام، وكان عمره سبعاً وأربعين سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً،ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة، وهو المثمن لأنه الثامن من خلفاء بنى العباس.

ومن الأتفاق العجيب أن أحواله مثمنة أكثرها، فولد سنة ثمان وسبعين ومائة ـ كما ذكرنا ـ وولى الخلافة ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، على اختلاف فى الأيام خاصة، ومات عن ثمانية بنين وثمانى بنات، وخلف فى بيت المال ثمانية آلاف ألف دينار وثمانية آلاف ألف درهم.

وكانت له ثمانية فتوح عظام، منها أسره بابك. وقد أحصى من قتله بابك فى

(١) سورة هود الآية ١٦

عشرين سنة، وذلك مائتا ألف وخمسة وخمسون ألفاً على القليل، وعلى التكثير خمسمائة ألف. وإلى بابك تنتسب البابكية. ومنها فتح أنقرة وفتح مدينة عمّوريّة. ومنها قهره المحمرة مع غلبتهم على أكثر البلاد، ومنها أسره البوارج وهى مراكب الهند، وكان فيها منهم عسكر عظيم قد غلبوا على ساحل فارس وعمان وناحية البصرة، وثم إخلاؤه الزط عن البطائح وماكانوا قد غلبوا عليه فيما بين البصرة وواسط،وقطعوا السبل، وسفكوا الدماء، وكانوا خلقاً عظيماً. ثم قتله جعفر بن فَهَر جيشَ الكردى،وكان ذا عدة عظيمة، بين الموصل وأذربيجان وأرمينية، قد تغلب على البلاد وبسط يده بالقتل. ثم هزيمة الأفشين لنوفيل ملك الروم، وهى من الهزائم المذكورة. وقد قتل الأفشين بعد ذلك لما واطأ بابك فإنه تارة كان معه وتارة كان عليه.

ثم صارت الخلافة

إلى الواثق بالله[1] أبى جعفر هارون بن المعتصم، يوم الخميس لثمانى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من العام (٨٤١م)، وأخباره تطول،وقد تلا أباه فى ضرب الإمام أبى عبد الله أحمد بن حنبل، وتقدم بشهرته فى البلد حتى يقول بخلق القرآن، فأبى فأودعه السجن وقيل: جعل داره حبساً له. وقد تقدم القول فى ترجمة المعتصم بالله وذلك بسعاية القاضى أحمد بن أبى دؤاد القطان المعتزلىّ والوزير محمد بن عبد الملك الزيَّات، وكلاهما من أولاد الباعة،فولّيا أمرالناس. وذلك من أشراط الساعة.

ثبت عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال لجبريل ـ عليه السلام ـ وإذا كانت العراة الحفاة رءوس الناس، فذلك من أشراطها. من حديث أبى هريرة وهومجمع على صحته.

وحدثنى المحدث الثقة عز الدين أبو العز عبدالباقى بن عثمان بن محمد ابن جعفر بن يوسف بن عبدالله بن صالح، قراءةً عليه بهمذان: أخبرنا أبو الفضل محمد ابن عثمان بن أحمد القومسانىّ أخبرنا إبراهيم بن خمير بن الحسن. قال سمعت أبا الفضل بن على الزعفرانى بسارية يقول:سمعت الحسن بن على بن البرذعى يقول: سمعت أبا الضحى محمد بن مالك يقول: سمعت أبى أبا منصور بن أيوب بن غسان يقول: لما أراد محمد بن الحنفية - رضى الله عنه- أن يوصى، دعا أكبر أولاده أبا هاشم، ثم قال: يابنىّ،إن أصابك قحط الزمان وجدب الأيام،فعليك بصباح الوجوه وأولاد الكرام،وورثة النعم وذوى الأصول الثابتة، والفروع النابتة، وإياك والوجوه العابسة،والأكف اليابسة، حليف القراريط، وكاسب الطساسيج، إن سئلوا ضنوا، وإن أعطوا منّوا، لاتخلقنّ إليهم وجهك، ولاتنقلنّ بحاجتك إليهم رجلك، وكن كما قال امرؤ القيس:

وسل المعرف إن سألت جواداً ... لم يزل يعرف الغنى واليسارا
وإذا لم تجد من الذّل بداً ... فالق بالذلّ إن لقيت الكبارا
ليس إجلالك الكبير بذلّ ... إنما الذلّ أن تجلّ الصغارا

(١) انظر: الكامل ٧/ ١٠، تاريخ الطبرى ١١/ ٢٤، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٢٠٤، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٧، مروج الذهب ٢/ ٢٧٨ ـ ٢٨٨، تاريخ الخلفاء ١٤ ـ ١٥.

قلت: لايصدر هذا الكلام إلا من مثل ابن عم النبى -عليه السلام- إلا أن هذا الشعر لم أجده فى شعر امرىء القيس الموجود بأيدى الأساتيذ من أهل اللغة، أعنى الكنديّ بن حجر المعروف بالضلّيل، إلا إن كان يعنى غيره فإن عندهم يعرفون بهذا الاسم منهم امرؤ القيس بن مالك الحميريّ الشاعر المحتجّ بشعره عند اللغويين أيضاً، وامرؤ القيس بن عابس الكندى، صاحب رسول الله ـ ﷺ ـ وقد اختلف النحويون فى قائله. فقال أبو محمد بن السيد فى شرح أبيات (الجمل) له: هذا الشعر يروى لامرىء القيس بن حجر، ويروى لامرىء القيس بن عابس من كندة. وعابس اسم منقول من الصفة. وحجر اسم منقول من النوع. لأن الحجرو الحجر بالضم والكسر، الحرام قال الله- تعالى ﴿وحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (١) «لهى حراما محرّماً»

وتوفى الواثق بسرّ من رأى يوم الأربعاء خامس عشرين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وله اثنتان وأربعون سنة،وأعقب عدة أولاد، ولم يمت حتى احترق وصار كأنه فحمة.

حكى ذلك الحافظ الإمام، عالم أصبهان، أبو القاسم إسماعيل بن الفضل الأصبهانى فى كتاب (سير السلف) له فى حكاية طويلة فى مناقب أحمد بن محمد ابن حنبل ـ رضى الله عنه ـ وأن الخليفة الواثق دعا على نفسه إن كان مايقول فلان حقاً فحرقه الله بالنار.

فمن الحكاية أن الواثق كان يحب النساء وكثرة الجماع، فوجه ذات يوم إلى ميخائيل الطبيب فدعى له، فدخل عليه، وهو نائم فى مشربة وعليه قطيفة خزّ فوقف بين يديه فقال: ياميخائيل، أبغى دواء للباه فقال: يا أمير المؤمنين ، بدنك فلا تهدّه !فإن كثرة الجماع تهدّ البدن، ولاسيما إذا تكلف الرجل ذلك، فاتق الله فى بدنك، وأبق عليك .فليس لك من بدنك عوض.

ثم ذكركلاماً وصفة عن الواثق كرهت نصه، لما فيه من ذكر النساء ، وزبدته ونصه قوله: فإن؛ كان ولا بدّ فعليك بلحم السبع فأمر أن يؤخذ لك رطل فيغلى سبع

(١) سورة الفرقان الآية ٥٣

غليات بخل خمر، فاذا جلست على كذا أمرت أن يوزن لك منه ثلاثة دراهم، فانتقلت به على كذا فى ثلاث ليال فإنك تجد فيه بغيتك. واتق الله فى نفسك ولا تسرف فيها ولا تجاوز ما أمرتك به.

فاستعمل ذلك وأسرف فيه فاستسقى بطنه، فجمع له الأطباء، فأجمع رأيهم على أنه لادواء له إلا أن يسجر له تنور بحطب الزيتون ويشحن حتى يمتلىء فاذا امتلأ كسح مافى جوفه فألقى على ظهره، وحشى جوفه بالرطبة .ويقعد فيه ثلاث ساعات كوامل من النهار فان استسقى ماءً لم يسق. فاذا مضت ثلاث ساعات كوامل أخرج منها وأجلس جلسة. فإذا أصابه الرواح وجد لذلك ألماً شديدا يطلب أن يرد إلى التنور فيترك على حاله ولايمضى إلى التنور حتى تمضى ساعتان من النهار،فإنه إن مضت ساعتان من النهار جرى ذلك الماء وخرج من مخارج البول وان سقى ماءً أو ردّ إلى التنور كان تلفه فيه.

فأمر الخليفة ففعل مادله عليه الأطباء، فلما مضت له ثلاث ساعات أخرج وقد كاد يحترق، أو يقول القائل ـ فى رأى العين: قد احترق. فأجلسه المتطببون، فلما وجد روح الهواء اشتد به الوجع والألم، فأقبل يصيح ويخور خوران الثور. ويقول: ردّونى إلى التنور فاجتمع نساؤه وخواصه وفيهم وزيره ابن البياع الفسل فردوه إلى التنور شفقة عليه فى زعمهم، فلماوجد حرارة النار سكن صياحه وتفطرت النفاخات التى كانت خرجت ببدنه فأخرج من التنور وقد احترق وصار أسود كالفحم فلم تمض به ساعة حتى قضى.

ولم يكن ونسله قبطة سوى المهتدى فكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وستة أيام. وكان يهب الآلاف .

وقد قدمنا ماذكره عالم أصبهان أبو القاسم إسماعيل بن الفضل الأصبهانى فى كتاب (سير السلف) له أن الخليفة الواثق بالله،دعاعلى نفسه إن كان مايقول أحمد بن حنبل حقاً فحرقه الله بالنار. فحذار حذار من دعاء الرجل على نفسه ،أو أهله فربما صادفت إجابة يكون بها مثلة، لما ثبت عن رسول الله-ﷺ- أنه قال : لاتدعوا على أنفسكم ولاتدعوا على أولادكم ولاتدعواعلى أموالكم لاتوافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم. أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث جابر بن عبدالله،

وسرّ ذلك أن دعاءه على نفسه إنما يكون عند تسخطه أو تجبره وعند عدم خضوعه وتدبّره تصادف دعوته من الله قبولاً يصير بها مثلاً منقولاً.

وكان الخليفة الواثق بالله عالماً بالأنساب والآداب يهب الآلاف ورضع فى سدّته النبوية للكرم أخلاف. وقّع الواثق على رقعة أحمد بن أبى دؤاد القاضى وقد سأله فى أمر رجل عليه دين: قد أخلت ياأحمد بيوت الأموال طلباتك للآثذين والمتوسلين إليك.

فكتب القاضى تحته:

نتائج شكرها ياأمير المؤمنين متصلة بك ،وذخائر أجرها مكتوبة لك، ومالى من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بخلود المدح فيك،والسلام.

فوقّع تحته:

والله ـ يا أبا عبدالله ـ لا منعناك ما يزيد فى عشقك ويقوى من منتك. وأمر بإخراج خمسمائة ألف ألف درهم ليفرقها من يراه. ودخل عليه القاضى يوماً وكان أهل الدولة وعلماؤها يكرهونه للاعتزال ، ويتكلمون فيه بقبائح تنسب إليه، فقال له الواثق:

يا أحمد مازال قوم فى غيبتك منذ اليوم.

فقال:

ياأمير المؤمنين «لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم .والذى تولى كبره منهم» فالله ولىّ جزائه، وعقابك من ورائه،وما ضاع امرؤ أنت ناصره، فماذا قلت لهم ياأمير المؤمنين؟

قال قلت :

وسعى إلى يعيب عزة نسوة جعل الآله خدودهن نعالها

وأعطى للغوى النحوى أبى عثمان المازنى ألف دينار لما استعطفه ببيت واحد وذلك أنه قصد بعض أهل الذمة من اليهود أبا عثمان المازنى ليقرأ كتاب سيبويه عليه

وبذل له مائة دينار عن تدريسه إياه فامتنع أبو عثمان من قبول بذله وأضب على رده .قال أبو العباس المبرد: فقلت له: جعلت فداك أترد هذه النفقة مع فاقتك وشدة إضاقتك؟

فقال :

إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله عز وجل. ولست أرى أن أمكن منها ذمياً غيرة على كتاب الله تعالى وحمية له.

قال فاتفق أن غنت جارية بحضرة الخليفة الواثق بالله بقول العرجى:

أظلوم أن مصابكم رجلا أهدى السلام إليكم ظلم

فاختلف من بالحضرة فى إعراب رجل فمنهم من نصبه وجعله اسم إن ومنهم من رفعه على أنه خبرها والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازنى لقنها إياه بالنصب .فأمر الواثق بإشخاصه.

قال أبو عثمان: فلما مثلت بين يديه قال ممن الرجل؟ قلت: من بنى مازن قال أى الموازن؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة؟ قلت: من مازن ربيعة. فكلمنى بكلام قومى وقال لى باسمك؟ لأنهم يقبلون الميم باء والباء ميمًا. قال: فكرهت أن أجيبه على لغة قومى لئلا أواجهه بالمكر. فقلت بكر ياأمير المؤمنين ففطن لما قصدته، وأعجب به .

ثم قال ما تقول فى قول الشاعر:«أظلوم ان مصابكم رجلاً».

أترفع رجلا أم تنصبه؟ فقلت بلْ الوجه النصب .يا أمير المؤمنين قال: ولم ذاك؟

فقلت :

إن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم فأخذ اليزيدى فى معارضتى،فقلت : هو بمنزلة قولك أن ضربك زيداً ظلم فالرجل مفعول مصابكم ومصوب به فالدليل عليه أن الكلام معلق إلى أن يقول ظلم فيتم.

فاستحسنه الواثق وقال :هل لك من ولد؟قلت: نعم! بنية . ياأمير المؤمنين! قال : ماقالت لك عند مسيرك؟

قلت : أنشدت قول الأعشى:

أيا أبتا لا ترم عندنا فإنا بخير إذا لم ترم
أرانا إذا أضمرتك البلاد تجفى وتقطع منا الرحم

قال فما قلت لها قلت قول جرير:

ثقى بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح

قال: أنت على النجاح إن شاء الله ثم أمر لى بألف دينار وردنى مكرماً.

قال المبرد: فلما عاد إلى البصرة قال لى: كيف رأيت يا أبا العباس، رددنا لله مائة فعوضنا ألفاً !؟

قوله واضب عليها أى أكب والضب الحقد ،وقولها لاترم أى لاتفارقنا ولاتخرج عنا.وفى الصحيح للبخارى أن هرقل لم يرم حمص حتى أتاه كتاب صاحبه أى لم يفارق حمص ولم يخرج عنها.

ثم صارت الخلافة

إلى المتوكل [1] على الله أبى الفضل جعفر بن المعتصم . قال: العدل الثقة مصعب الزبيرى: ولى المتوكل يوم الأربعاء خامس عشر ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين (٨٤٧م) فى اليوم الذى توفى فيه أخوه الواثق وأنا حاضر فى مجلسه.

فى ذلك اليوم بايع المتوكل لولاة العهد وجعله بين أولاده محمد المنتصر الذى قتله وأبى عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد. ولم يدخل فى العهد أبا العباس أحمد المعتمد ولا أبا أحمد الموفق. فصار الأمر ممن له الأمر إلى ولد أبى أحمد الموفق إلى اليوم.

وأمر أهل الذمة من اليهود والنصارى بلبس العسلى، والزنانير، وركوب السروج بركب الخشب، وبتغيير القلانس دون عمائم ، وتغيير زى النساء فى أزرهن العسلية ليعرفن، وإن دخلن الحمام كان معهن جلاجل ،وأمر بهدم بيعهم المحدثة،وبأخذ العشر من منازلهم .فإن كان الموضع واسعاً صير مسجداً وإن لم يصلح أن يكون مسجداً صير فضاء ، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة ،تفرقة بين منازلهم ومنازل المسلمين ،ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى تجرى أحكامهم فيها على المسلمين .

قلت : وصدق ، فإن الله تعالى يقول:﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2].

قال سعد بن أبى وقاص خال رسول الله- ﷺ وآخر العشرة موتاً. هم اليهود والنصارى. ذكره البخارىّ فى صحيحه فى تفسير هذه الآية.

ونهى أن تتعلم أولادهم فى مكاتب المسلمين ولايعلمهم مسلم وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين .وكتب إلى الآفاق بذلك. ومنع من قراءة الجدل، وحضّ على قراءة الحديث.

---

(١) انظر : تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٧،تاريخ بغداد ٧/ ١٦٥، ثمار القلوب ٨٠-٨٥، تاريخ اليعقوبى٣/ ٢٠٨ الكامل ٧/ ١١-٢٩، تاريخ الطبرى ١١/ ٢٦-٦٢، مروج الذهب ٢/ ٢٨٨.

(٢) سورة الكهف الآية ١٠٤.

وأمر بإشخاص أبى الفيض ذى النون بن إبراهيم الأخميمى واسمه ترنين، بالتاء المثناة باثنتين من فوق والراء المهملة الساكنة ونون مكسورة بعدها وياء ساكنة ونون مرسلة نوبىّ النسبة مولىّ لقريش .فوصل إلى سرّ من رأى سنة خمس وأربعين ومائتين فأنزله الخليفة فى بعض الدور وأوصى به رجلاً يعرف بزرافة. وقال: إذا أنا رجعت غداً من ركوبى فأخرج إلىّ هذا الرجل .فقال له زرافة إن أمير المؤمنين قد أوصانى بك . فلما رجع من الغد من الركوب قال له: انظر أن تستقبل أمير المؤمنين بالسلام. فلما أخرجه إليه قال له سلم على أمير المؤمنين .فقال له ذو النون : ليس هكذا جاءنا الخبر، إنما جاءنا فى الخبرأن الراكب يسلم على الراجل. قال : فتبسم أمير المؤمنين وبدأه بالسلام .فنزل إليه أمير المؤمنين فقال، له: أنت زاهد أهل مصر؟ قال: كذا يقولون!

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ: وباقى الكلام منصوص فى (الحلية) وغيرها وقد تقدمت أسانيدى إليها فانظر إلى شرف هذا الخليفة وأخذه بالسنّة وانظر إلى همة هذا العالم الزاهد ولم يخف شيئاً من تلك الهيبة.

وهذا الحديث رواه عن جماعة من العلماء ، فإنه يروى عن إمام أهل مصر أبى الحارث الليث بن سعد ولقى بالمدينة إمامها مالك بن أنس ، ولقى بمكة إمامها أبا محمد سفيان بن عيينة والإمام أبا على الفضيل بن عياض وغيرهم.

وراواه مالك فى الموطأ مرسلاً فى كتاب (الجامع) عن زيد بن أسلم: أن رسول الله -ﷺ- قال : يسلم الراكب على الماشى .وفى رواية سعيد بن كثير ابن عفير ليسلم باللام.

وهو حديث متفق على صحته ترجم عليه البخارى فى كتاب الاستئذان فى باب تسليم القليل على الكثير : حدثنا محمد بن مقاتل ،قال : أخبرنا عبدالله، قال أخبرنا معمر عن همّام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى -ﷺ- قال: «يسلم الصغير على الكبير، والمارّ على القاعد، والقليل على الكثير»(*).

(*) ورد فى مفتاح كنوز السنة .

ثم ترجم باب يسلم الراكب على الماشى : حدثنى محمد بن سلام، قال: أخبرنا مخلد، قال: أخبرنا ابن جريج، قال : أخبرنا زياد أنه سمع ثابتاً مولى ابن زيد أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : يسلم الراكب على الماشى، والماشى على القاعد، والقليل على الكثير. ثم كررّه فى بابين بعد هذا.

وأجمع العلماء أن الابتداء بالسلام سنّة وخير وأدب، والردّ واجب عند جميعهم، والسلام مما يورث الحب ويلين القلب.

ثبت عن أبى هريرة قال : قال رسول الله-ﷺ- :

«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ،ولا تؤمنوا حتى تحابّوا. ألا أدلكم على شئ اذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (١).

وقد حدثنى غير واحد من أشياخى بالمشرق، قالوا : حدثنا الثقة أبو على المقرىء ،قال : حدثنا أبو نعيم سماعاً عليه، قال: سمعت محمد بن إبراهيم يقول:سمعت أبا الفضل الصيرفى ببغداد يقول: سمعت أبا عثمان سعيد بن عثمان يقول: سمعت ذا النون يقول : إن الله لم يمنع الجنة أعداءه بخلاً ولكن صان أولياءه الذين أطاعوه أن يجمع بينهم وبين أعدائه الذين عصوه.

ولمامات ذو النون رأى الناس على جنازته طيوراً خضراَ، وأمر أن يجعل قبره مع الأرض .هذه رواية محمد بن زيّان .وأسند أبو نعيم (٢) عنه أنه رآها، وأسند عن أبى الخير صاحب الشافعى قال: حضرت جنازة ذى النون فرأيت الخفافيش تقع على نعشه وبدنه وتطير.

وأمر الخليفة بالقبض على محمد بن عبدالملك الزيات. وقال : مالى وللباعة؟وأخذ جميع أمواله المكتسبة من الحرام.

وكان محمدبن عبدالملك الزيات لايرق لأحد ولايرحمه ويزعم أن الرحمة خور فى الطبيعة. وكان قد اتخذ تنوراً من خشب فيه مسامير حديد كان يعذب فيه من يطالبه.

(١) ورد فى صحيح ومسلم وسنن الترمذى.

(٢) أبونعيم الاصبهانى جاءت ترجمته فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧.

وهو أول من عمل ذلك وعذب فيه ،فابتلاه الله ـ تعالى ـ بأن يعذب فى ذلك التنورحتى مات (١).

ووقّع يوماً على رقعة رجل توسل إليه بقرب الجوارمنه: الجدار أقرب منك جواراً.وأمر له بدرهم طبرىّ. وهو من أرادئ السكك (٢) وتعرّض إليه رجل من جيرانه وقال له: بينى وبين المولى الجوار،فتعطّف على عبدك ورق له. فقال له: الجوار للحيطان والتعطّف إنما يكون للنسوان، والرقة خور وضعف فى النفس ولم يأمر له بفلس.

وعزل المتوكل أحمد بن أبى دؤاد عن القضاء وأخذ جميع أمواله وديارة وضياعه بعد ما فلج وولى يحيى بن أكثم.

قتله محمد ولده بسرّ من رأى ليلة الأربعاء رابع شوال سنة سبع وأربعين ومائتين (٨٦٢م) وهو على خلوة مع وزيره ،وأمر الله سابق فى تقديره، فابتدره باغر التركىّ فضربه على كتفه وأذنه فقدّهما ، فقام وزيره الفتح بن خاقان فى وجهه ووجوه القوم، وقال: وراءكم يا كلاب ! فقال له بغا الصغير المعروف بالشرابىّ: ألا تسكت ياحلقىّ(٣) فرمى الفتح بنفسه على المتوكل، فاعتوره القوم بسيوفهم فقتلوهما معاً وقطعوهما حتى اختلطت لحومهما فجزاه الله من صاحب صادق الصحبة خيراً.

ومن الاتفاق العجيب أن المتوكل كان قد ذكر له سيف قاطع كان لملوك حمير(٤). لاتكون مثله السيوف ولامثل قيمته ووصفه بالقطع والحسن الذى هو به موصوف، فبعث فى طلبه إلى الحجاز واليمن وبلاد العجم حتى وجده بالبصرة فاشتراه بثلاثين

(١) ابن الزيات ترجمته فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٧٨

(٢) أراد بالسكك النقود لا السكة نفسها توسعاً فى المعنى ومثله فى تأريخ الخطيب البغدادى ج ٦ص ٣٤٦ وجاء ذكر الدراهم الطبرية فى كتاب(تعرفة المسكوكات القديمة والإسلامية) فى المدخل وهى ص ١٢وص ٣٧٥وهى أقل وزناً من الدراهم المعروفةكما ذكر المؤلف. وقدضربت فى العهد الإسلامى أيام الدولة العباسية فى أوائلها ثم صارت كنقود المسلمين.

(٣) قال النحوى الثقة أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى فى كتاب(الزاهر) له أخبرنى أبى عن أحمد بن عبيد، قال : الحلقى الذى فى ذكره فساد لايصلح من أجله أن ينكح لكنه ينكح هو. وذكر كلاماً . (حاشية من إملاء المنصف).

(٤) لعله الصمصامة سيف عمرو بن معد يكرب . وكان يقال إنه وصل إليه من ملوك حمير.

ألف درهم، فعرض على جماعة حاشيته وكلهم يتمناه ويود لو حملته يمناه! فقال بغا للمتوكل : لايصلح هذا السيف إلا لساعد باغر ، ووهبه له دون غيره، فأجرى الله إنفاذ قدره إلى أن كان ذلك من مقدرّ ضيره ،فقتل المتوكل به باغر فسبحان من قدره لايتقدم ولايستأخر.

وكان بعض أهل العسكر رأى فى منامه رجلاً ينشد:

إن الليالى لم تحسنْ إلى أحد ... إلا أساءت إليه بعد إحسان

أما رأيت خطوب الدهر ماصنعت ... بالهاشمى وبالفتح بن خاقان؟

فبقى فى الخلافة أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام، وقيل: وتسعة أيام(١).

(١) فى تأريخ الخطيب تفصيل ترجمته ج ٧ص ٣٦٥

obeikandl.com

ثم صار الأمر الى أبنه المنتصر (*)

أبى جعفر محمد يوم الأربعاء المذكور، وهو أول من عدا على أبيه من بنى العباس، كما أن يزيد بن الوليد من بنى أمية أول من عدا على أبيه منهم. وشيرويه بن كسرى قتل أباه، وقد جرت عادة الله من عدا على أبيه لايبلغه سؤلاً ولا يمتعه بدنياه إلا قليلاً..

فلم يقم المنتصر بعد أبيه سوى سنة أشهر إلا أياماً. وكان يسئ إلى العيال، ويبخل بالمال، فسمّه بعضهم فى كمثرى ،فمات. وقيل : أصابته الذبحة [1] وقيل : أصابه ورم فى معدته، وقيل فصد بمبضع مسموم، وقيل: بل وجد علة فى رأسه ،فقطر طبيبه ابن طيفور فى أذنه دهناً فورم رأسه ، فعوجل فمات بسرّ من رأى ليلة السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين [2].(٨٦٢م). وصلى عليه المستعين.

وكان إذا جلس إلى الناس يتذكر، فترعد فرائصه، وذلك أنه رأى أباه فى النوم كأنه يقول: ويلك يا محمد، قتلتنى وظلمتنى، والله لا تمتعت بالخلافة إلا أياماً يسيرة، ثم مصيرك إلى النار. فانتبه وهو لا يملك عينيه. فكان يسلى فيقال له: هذا استشعار وهو حديث النفس فلا يسلو، ولم يزل منكسراً إلى أن توفى وله خمس وعشرون سنة.

(*) انظر: التبر المسبوك لأبى الفداء ٤٧

(١) الذبحة كهزة وعنبة وجع فى الحلق أودم يختق فيقتل كما في القاموس.

(٢) تفصيل حياته فى تأريخ الخطيب ج ٢ صـ ١١٩

ثم صارت الخلافة إلى المستعين (١)

بالله أبى العباس أحمد بن محمد بن المعتصم، فبقى فى الخلافة ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية وعشرين يوماً. ومنذ خلع الى أن قتل نحو من تسعة أشهر، لأنه خلع نفسه من الخلافة وردها إلى المعتزبالله،لأن الأمور اضطربت عليه. لأنه كان يولى الرجل ثم يمله فيعزله ثم يردّه ثم يعزله.

وقالت الحكماء: ماعلى الدول شرّ من تقلب الولاة.ولااختلفت الآراء على دولة إلا تعجّل هلاكها. ولاقدم السفلة وترك أعيان الناس إلا احتقرت الدولة واستطالت عليها العامة.

فتنكر الأتراك للمستعين، واستقر الأمر بعد ذلك على تصيير المعتزّ على الخلافة، ونفى المستعين إلى واسط مع أصلح من يختاره ويأمنه على نفسه ويرضى به الأتراك. فوقع الأختيار على أحمد بن طولون ومضى به إلى واسط فأحسن ابن طولون عشرته وشكر حسن بلائه عنده، وأطلق له التنزّه والصيد، وكره أن تدخل المستعين حشمة منه ، فألزمه أحمد بن محمد الواسطى وكان يومئذٍ حديث السنّ حلو المشاهدة حاضر النادرة.

وماج غلمان المتوكل وخافوا على المعتز من كيد يلحقه من المستعين يجمع الأولياء إليه فاضطربت لذلك قبيحة أم المعتز فكتب إلى أحمد بن طولون (٢) بقتله، والبعثة إليهم برأسه، وتقلد واسط بعد ذلك، فكتب إليهم والله : لأرانى الله ـ عزوجل ـ وأنا أقتل خليفة بايعته أبداً.

فأنفذوا إليه سعيداً الحاجب وقدتقدم إلى أحمد بن طولون بتسليم المستعين إليه، وأن يرجع إلى سرّ من رأى، قال أحمد بن يوسف بن إبراهيم المعروف بالمنجم وكان ثقة: فسمعت أحمد بن محمد الواسطى يحدث يوسف بن إبراهيم والدى، قال:

(١) انظر تاريخ الخميس ٢/ ٣٤٠، شذرات الذهب ٢/ ١٢٤، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٣٥، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٢١٨، تاريخ الطبرى ١١/ ٨٢ - ١٣٧، مروج الذهب ٢/ ٣١٩-٣٣٠، الكامل ٧/ ٣٧-٥٦، تاريخ بغداد٥/ ٨٤،

(٢) رأس آل طولون.ولى مصر ، وبنى الجامع المعروف بجامع ابن طولون. وترجمته فى تأريخ ابن خلكان ج ١ ص ٧٧.ومنه تكون آل طولون بمصر على ماسيجئ.

بكرت مع المستعين، وقد ركب للتنسم، فرأينا غبرة خيل مراصيد، فأنفذ غلاماً يركض ليعرف خبرها فرجع ، فقال: هو سعيد الحاجب فقال لى: يا أباعبدالله استودعك الله، قد جاء جرّار بنى هاشم.

فلم تمض إلا ساعة حتى تسلمه واستبعد به وضرب خيمة، ثم أدخله إياها وخرج فألقاها على مافيها وركب دوابه وسار، فلما بعد نظرنا إلى مافى الخيمة فإذا بجثة المستعين وقد حمل سعيد رأسه معه، فلم يبرح أحمد بن طولون حتى غسل الجثة وكفنها وواراها . ودخل أحمد بن طولون سرّ من رأى وقد زاد محلّه من قلوب الأتراك ووسموه بحسن الموقف وجميل المذهب .

وقتل بالسيف ذبحاً يوم الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين .

ثم صارت الخلافة إلى المعتز(١)

بالله أبي عبد الله محمد بن المتوكل ـ وقيل : اسمه الزبير. وقيل: طلحة- يوم السبت لست خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين. وقيل : يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم.

وكان فيه أدب وكفاية، ولم ينفعه ذلك لإدبار السعد عنه، وقرب قرناء السوء منه، فخلع. ومازال بالضرب حتى مات بسر من رأى ،لثلاث خلون من شعبان، وقيل: لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين (٨٦٩م) وهو الأشبه وله أربع وعشرون سنة.

وقرأت في (نقط العروس) الذي حدثني به غير واحد عن القاضي أبي الحسن شريح بن محمد عن مؤلفه أن المعتز أدخل في الحمام، فأغلق عليه حتى مات. والعجب أن أبنه رمى في صهريج ماء في شدة البرد فمات فيه . وكان المعتز أحسن الخلفاء وجهاً، فبقي في الخلافة ثلاث سنين وستة أشهر وواحداً وعشرين يوماً ، وقيل:وأربعة وعشرين يوماً.

---

(١) انظر: الكامل ٧/ ٤٥ ـ ٤٦، تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٢، تاريخ بغداد ٢/ ١٢١، تاريخ الخميس ٢/ ٣٤٠، مروج الذهب ٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣٨، فوات الوفيات ٢/ ١٨٥.

ثم صارت الخلافة الى المهتدى (١)

بالله أبى عبد الله محمد بن الواثق بن المعتصم بن الرشيد، يوم الثلاثاء فى سابع عشر رجب سنة خمس وخمسين ومائتين (٨٦٩م) وكان متظاهراً بالدين جارياً على منهاج الخلفاء الراشدين المهديين. وقال: إنى أستحيى من الله أن لايكون فى بنى العباس مثل عمر بن عبدالعزيز فى بنى أمية، فتبرم به بابك التركى وكان ظلوماً غشوماً. فأمر بقتله المهتدى. ولما قتل هاجت الأتراك ووقع الحرب بينهم وبين المغاربة، فقتل من الفريقين أربعة آلاف، وخرج المهتدى والمصحف فى عنقه وهو يدعو الناس إلى نصرته والمغاربة معه وبعض العامة، فحمل عليهم طيغا أخو بابك فهزمهم. مضى المهتدى منهزماً والسيف فى يده وقد جرح جرحين حتى دخل دار محمد بن دواد فجمعت الأتراك وهجموا عليه وأخذوه أسيراً، وحمله أحمد بن خاقان على دابة فأردف خلفه سائساً بيده خنجر فأدخل إلى دار أحمد وجعلوا يصفعونه، ويقولون : اخلعها فأبى عليهم، فسلم الى رجل فوطئ مذاكيره حتى قتله. إلا أنه لم يوفق فى الوزير والحاجب والقاضى، لأن وزيره جعفر بن محمود الإسكافى وحاجبه صالح بن وصيف وقاضيه الحسن بن محمد بن أبى الشوارب يحبّون الدنيا ويشرئبو إليها، ولايذ كرون الآخرة ويكرهون من يدلهم عليها، فكانوا إعانة على سفك دمه، وهتك حرمه، فقتل بخنجر. والخنجربفتح الخاء والجيم هوالأفصح. وقال بعضهم بكسر الخاء وفتح الجيم، وهونوع من السكاكين كبير . وذلك بسرّ من رأى لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين (٨٧٠م) وله أربعون سنة وأربعة أشهر.

وكان له سفط فيه جبّة صوف يصلى فيها بالليل، وغل يمتنع به من النوم فلما قتله الأتراك تضاربوا على السفط وقدّروا أن فيه ذخائره فلما أطلعوا على مافيه أظهروا الندامة وبقى فى الخلافة أحد عشر شهراً وتسعة عشر يوماً ، وليس من نسله خليفة الى اليوم .

---

(١) انظر: تاريخ اليعقوبى ٣/ ٢٢٧، مروج الذهب ٢/ ٣٣٨ ـ ٣٤٥، تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧، تاريخ الخميس ٢/ ٣٤١، الكامل ٧/ ٦٤ ـ ٧٧، فوات الوفيات ٢/ ٢٧٠.

ثم صارت الخلافة إلى المعتمد باللّه (١)

أبى العباس أحمد بن المتوكل. بويع يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين، وكانت أمامه مضطربة الأحوال، مختلّفة التدبير، كثيرة العزل والتولية بتدبير الموالى وغلبتهم عليه فقيل فى ذلك:

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شئ فىّ يديه

فقام أخوه الموفق بالله الملقب بالناصر وبالمنصور الثانى أبو أحمد طلحة بالخلافة أحسن قيام، وأذاق قرناء السوء كأس الموت الزؤام، ولاه العهد بعده وخطب له بذلك على المنابر،وكان يقال : اللهم أصلح الأمير الناصر لدين الله أبا أحمد الموفق بالله ولىّ عهد المسلمين أخا أمير المؤمنين. وكان من الشجاعة وجودة الرأى وحسن الحظ وبلاغة اللفظ والانقطاع إلى الله فى مهماته، والتوكل عليه فى عزماته بمكان لاينال ،وبمحلّ لا يرتقى .وكشف رأسه فى حرب صاحب الزنج وقاتل حاسراً وجعل ينادى : أنا الغلام الهاشمىّ! حتى قتل الله صاحب الزنج على يديه، وذلك لتوكله عليه وانقطاعه إليه.

ومات فى حياة أخيه، وذلك فى شهر صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين (٨٩١م) وله تسع وأربعون سنة تنقص شهراً ، ودفن بالرصافة.

فأهمل المعتمد أمر الرعية ولم يقدم عليهم من فيه شروط التقدمة المرعية.

فأختلف فى موته، فقال ابن حزم فى (نقط العروس): سمّ. وقيل: رمى فى رصاص مذاب فمات، وقيل بل مات فى حفرة من ريش مشى عليها فسقط فيها فمات غماً، وذلك ببغداد ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين (٨٩٢م).

وله خمسون سنة، وقيل : ثمانية وأربعون سنة فبقى فى الخلافة اثنتين وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً وليس من ولد المعتمد إلى اليوم خليفة .

---

(١) انظر: الديارات ٦٣ ـ ٦٩، تاريخ بغداد ٤/ ٦٠، تاريخ الخميس ٢/ ٣٤٢، تاريخ الطبرى ١١/ ٢١٤ ـ ٣٤١، البدء والتاريخ ٦/ ١٢٤، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٢٢٨، الكامل ٧/ ٧٧ ـ ١٥١.

ثم صارت الخلافة إلى المعتضد بالله (١)

أبى العباس أحمد بن الموفق أبى أحمد طلحة بن المتوكل يوم الاثنين التاسع عشر من شهر رجب ، وقيل: يوم الثلاثاء لأثنتى عشرة ليلة بقيت منه سنة تسع وسبعين ومائتين (٨٩٢م) فأزال الميل، وأقام العدل، وبذل المال، وأصلح الحال، وحجّ وغزا، وجالس المحدثين، وأهل الفضل والدين.

وقال ثابت بن قرة الحرّانى إنه استولى على الخلافة وليس فى بيت المال سوى قراريط من العين لاتبلغ الدينار وثمانية عشر قيراطاً. والحضرة مطلوبة، والقرية منهوبة، والأعراب والأكراد عابثون، والأعداء متعاطون، والأولياء فاسدون طامعون، فأصلح الأمور وأحسن التدبير، وقمع الدعّار، وأباد الأشرار، وبالغ فى العمار، وأنصف فى المعاملة، ورفق بالرعية ، حكم بالسوية، حتى استفضل فى ارتفاعه فى سنى خلافته تسعة عشر ألف ألف دينار، وتقدم إلى أمراء الأجناد أن يتقدم كل واحد منهم إلى أتباعه بلزوم الطريقة الحميدة، وأن من أفسد غلامه على أحد من الرعية شيئاً أو تجرّأ على أحد بأذية، فالمأخوذ به الأمير دون الغلام.

فسمع يوماً صوتاً من الكروم ،مما يلى دجلة فأنفذ يستعلم ذلك، فقيل له : سائس قد أخذ من إنسان حصرماً. فأمر بإحضاره، وقال له من أتباع من أنت ؟ فقال من أصحاب فلان الأمير. فأمر بإحضاره وتقدّم بضرب عنقه، فقتل الأمير، ولم يجسر بعد ذلك أحد أن يفسد ولم يبق من الجند إلا من خافه،وكثر الأمن .

ثم قال لوزيره عبيد الله بن سليمان-وكان محدثاً فاضلاً عاقلاً : لعلك أنكرت ماجرى فى حق الأمير المقتول، وكيف قتلته بجرم جناه آخر؟ فقال الوزير: هوذاك ياأمير المؤمنين.

قال: كنت فى خلافة المعتمد، فرأيت هذ الأمير قد قتل رجلاً بغير ذنب على سبيل العمد، ولم يكن له وارث فى الخلق، فنذرت لله تعالى إن ولانى أن أقتله به، فلما

(١) انظر: النجوم الزاهرة ٣/ ١٢٨، شذرات الذهب ٢/ ١٩٩، فوات الوفيات ١/ ٤٥، الكامل ٧/ ١٤٧ ـ ١٦٩ تاريخ الطبرى ١١/ ٣٧٣، الأغانى ١٠/ ٤١، تاريخ الخميس ٢/ ٣٤٣، مروج الذهب ٢/ ٣٦١ ـ ٣٨٢، تاريخ بغداد ٤/ ٤٠٣

وليت كنت أتطلّب له العثرات حتى جرى ماجرى من غلامه، فقتلته بقتل ذلك الرجل وأقمت السياسة به فى الناس.

قلت: وهذا من فقهه ودينه

مسألة

لايجوز لمتول أمراً من أمور المسلمين من إمام فمن دونه أن يحكم فى قضية من القضايا بغير الحكم الشرعىّ. والمعنى يقال . من أن للملوك إقامة السياسة فلاسياسة إلا ماجرى على القوانين الشرعية ، ولا أنظر من الله تعالى فى دينه بين الملوك والرعية، ولاحكمة أتمّ وأوفى من حكمته المصلحية، ولا أضبط للدين من أوامره المرضية.

ولو جاز أن تكون الأمور السياسية تخرج عن أحكام الله - تعالى- ورسوله ـ ﷺ - لكانت شريعة ثانية، وذلك قول بنسخ الشريعة. نعوذ بالله منه. وقد قال الله - تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾(١). فكمال الدين بجمع الأوامر الدينية والأمور السياسية ولا أحكم من الله تعالى ورسوله ﷺ.

ولوكان فى السياسة ما يحتاج فيه إلى الخروج عن الشريعة لكانت ناقصة، وهوردّ على الله فى قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وبعد كمال الإسلام بالنص، فلا دقيقة فى الأحكام إلا وهى مبسوط عليها رداء الحكم الشرعى، والنظر الدينى، والأمر الإلهى .

وما يروى عن المعتضد فى السياسة فى الواقعة التى جاءت بها أخبار أصحاب التواريخ من قتله سيداً لمملوك بجرم فعله المملوك، فقد نصّ على أنه كان علم من حال السيد مايستحق به القتل، وهو من قضاء الإمام بعلمه، وقد قال به جماعة من العلماء. وترجم البخارى فى صحيحه فى كتاب الأحكام باب (من رأى القاضى أن يحكم بعلمه فى أمر الناس إذا لم يخف الظنون والتهمة)كما قال النبى ﷺ لهند : خذى مايكفيك وولدك بالمعروف إذا كان أمراً مشهوراً وذلك أن شح أبى سفيان كان أشهر من يذكر.

---

(١) سورة المائدة الآية ٣

فكان المعتضد لمااطلع من حال السيد على مايجب به قتله من قتل سابق، وصادف جرم مملوكه ، قتل السيد بالموجب السابق للقتل، وجعل فى ظاهر الحال تسكين شغب الجند حتى يحتفظوا ، ويمنعوا خدامهم ومماليكهم من ظلم الناس، ويقع الخوف فى النفوس من صرامة إمام الوقت.

فهو فى ذلك لم يخرج عن حكم الشريعة ولاحكم بغيرالدين.

وكيف لاوقد كان قاضيه أفضل أهل زمانه، وهو إسماعيل بن إسحاق المالكى؟!

وفى أيام المعتضد كان زكرويه بن مهرويه داعية لقرمط وقد تقدم ذكرهم فأرسل إليهم الجيوش فهزمهم وقتل منهم مالا يحصى.

وكان كثير الصدقات ،مشاهداً للصلوات ،مع الجماعات، منصور الرايات.

توفى ـ رحمه الله ـ بمدينة السلام، ليلة الثلاثاء لست بقين من شهر ربيع الآخر، وقيل: لثمان بقين منه سنة ثمان وثمانين ومائتين (٩٠١م). وقيل سنة تسع، وله سبع وأربعون سنة .وأمر أن يدفن بدار محمد بن عبدالله بن طاهر معتزل فى حجرة الرخام بها.

وكانت مدة خلافته عشر سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام. وقيل : تسع سنين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً .وكان أحد رجال بنى العباس الخمسة. ولم يل الخلافة من بعد بنى العباس بعد السفاح من لم يكن أبوه خليفة إلا المستعين والمعتضد.

ثم صارت الخلافة فى ذلك اليوم [1]

إلى المكتفى بالله أبى محمد على بن المعتضد بالله . وليس فى الخلفاء من كنيته أبو محمد سوى الحسن بن على عليهما السلام،وسوى المكتفى بالله. وليس فيهم من اسمه على غير أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وغير المكتفى بالله.

وهو الذى بنى جامع القصر بمدينة السلام، وكان موضعه مطامير فغطاها، وبنى تاج دار الخلافة على دجلة، وأنفق الأموال العظيمة فى حرب القرامطة الخارجين على الحجيج حتى أباداهم واستأصلهم.

وفى أيامه: فتحت أنطاكية، وكانت الروم قد استولت عليها ، ففتحت بالسيف،وقتل من أهلها آلاف، وأسر أمثالهم واستنقذ من المسلمين أربعة الآف رجل، وأصاب كل رجل شهد الوقعة ثلاثة آلاف دينار. وظفر للروم بستين مركباً عملوها للغزو.

وكان المكتفى مائلاً إلى حبّ على بن أبى طالب -رضى الله عنه- باراً بأولاده. يحكى أن يحيى بن على الشاعر أنشده بالرقة قصيدة يذكر فيها فضل أولاد العباس على أولاد على ،فقطع المكتفى عليه إنشاده.وقال: يايحيى: وكأنهم ليسوا بنوعم (كذا)!وإن كانوا خلفاء ماأحب أن يخاطب أهلها بشئ من ذلك. ولم يسع القصيدة ولا أجازه عليها.

وفى أيامه: انتدب الخوارج فى الأطراف، وبعث محمد بن سليمان صاحب الشرطة ببغداد إلى مصر، فسلم إليه شيبان بن أحمد بن طولون الأمر، فاستصفى أموال آل طولون [2] وأخرجهم من مصر وهم عشرون رجلاً.

(١) انظر: فوات الوفيات ٢/ ٤١، تاريخ بغداد ١١/ ٣١٦، تاريخ الطبرى ١١/ ٤٠٤، تاريخ الخميس ٢/ ٣٤٥، مروج الذهب ٢/ ٣٨٣ ـ ٣٩٠.

(٢) آل طولون آخرهم شيبان المذكور، وكان أحمد بن طولون مؤسس هذه الإمارة فى مصر، وتلاه خمارويه بن أحمد ، ثم أبو العباس جيش بن خمارويه، وبعده شيبان المذكور. وجاء ذكر نقودهم فى (تعرفة النقود الإسلامية)لإسماعيل غالب المسماة (بمكوكات القديمة إسلامية قتالوغى)، وذكرهم فى(دول إسلامية) الأستاذ خليل أدهم ومر ذكر أحمد بن طولون .وجاءت أخباره وابتداء أمره فى ابن الأثير جـ ٧ص٦٦ وص ١٤٧وأخبار من تلاه لما بعد ذلك ، وبيان انقراضهم فى ص ١٩٠ من المجلد المذكور.

وتوفى بمدينة السلام ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة خمس وتسعين ومائيين (٩٠٨م) وله إحدى وثلاثون سنة وستة أشهر، وفى ذلك خلاف. فكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وستة عشرة يوماً، وقيل: وتسعة عشرة يوماً: وولى من أولاد المعتضد ثلاثة : المكتفى والمقتدر والقاهر، كما أن أولاد الرشيد ولى منهم ثلاثة : الأمين والمأمون والمعتصم .

obeikandl.com

ثم صارت الخلافة الى المقتدر[1]

بالله أبى الفضل جعفربن المعتضد. وقيل اسمه إسحاق وإنما اشتهر بجعفر لشبهه بجعفرالمتوكل. وبويع يوم الأحد ثالث عشر من ذى القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين (٩٠٨م). اجتمعواعليه وله من عمره ثلاث عشرة سنةوشهران وثلاثة أيام .

وهوأول من ولى من بنى العباس وهوغير بالغ، وتكلم الفقهاء فى ذلك والمحدثون. فاحتج من أجازه بأن الله تعالى بعث يحيى بن زكريا نبياً وهو غير بالغ بقوله تعالى :﴿ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[2] ولا يقال فيمن بلغ صبى .

وقد ألف الصولى فى ذلك كتاباً، وليس الكلام فى هذه المسألة من غرضنا مع القطع ببطلانها والنكتة فى بيانها أنه استدل بقوله تعالى فى يحيى ﴿الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، وليس بحجة له. لأن معناه عند علماء المسلمين من المفسرين أن الله أعطاه الفهم قبل بلوغ أسنان الرجال. ذكر معمر : أن الصبيان قالوا ليحيى اذهب بنا نلعب فقال: ما للعب خلقنا .فأنزل الله ـ تعالى -: ﴿ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

قلت: فكان هذا عند معمر سبب نزول الآية وهو يحتاج إلى توفيق . فإن الصبى فى لغة العرب التى أنزل الله ـ تعالى ـ بها كتابه وبعث بها رسوله هو الذى ولدته أمه مادام رضيعاً ، ومادام فى بطن أمه فهو جنين، فإذ فطم سمى غلاماً إلى سبع سنين، ثم يصير يافعاً إلى عشر سنين ، ثم يصير حزوّراً إلى خمس عشرة سنة ثم يصير قمراً إلى خمس وعشرين سنة، ثم يصير عنطنطاً إلى ثلاثين سنة، ثم يصير صملا إلى أربعين سنة ، ثم يصير كهلاً الى خمسين سنة، ثم يصير شيخاً إلى ثمانين سنة، ثم يصير بعد ذلك هماً، فانياً كبيراً .

والأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ لايقاس بهم غيرهم، وقد كان نبينا ـ ﷺ لما أرضعته حليمة كان يقبل على ثديها الأيمن، ويترك ثديها الأيسر، لابنها ضمرة . ألهم العدل فى رضاعة، لما علم أن له فيه شريكاً فناصفه، ذكره أصحاب السير.

---

(١) انظر: الكامل ٨/ ٣ ـ ٧٥، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٣٣، تاريخ الخميس ٢/ ٣٤٥ ـ ٣٤٩، مروج الذهب ٢/ ٣٩٠، تاريخ بغداد ٧/ ٢١٣.

(٢) سورة مريم الآية ١٢

قلت: وظهور العدل فى هذا من وجهين : **أحدهما** قسمته الثديين بينه وبين شريكه لكل واحد ثدى، **والثانى** إعطاء الحق لذى لحق ، فكان الأولى بالأيمن أحق به وثبت عن رسول الله ـ ﷺ أنه قال كلما نشأت بغضت إلى الأوثان وبغض إلى الشعراء ولم أهتم بشئ مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين وعصمنى الله منهما ثم لم أعد.

قلت : والمرّتان إحداهما أن عرساً كان بمكة وفيه زمر فأراد أن يستمعه ﷺ فألقى عليه النوم ،فلم يستفق حتى ضربته الشمس. والثانية لما جدّد بناء الكعبة قال له العباس: ياابن اخى ،لو ألقيت إزارك على كتفك يقيك الحجارة. فأزال إزاره وبقى عرياناً، فسقط إلى الأرض مستتراً، وقيل: أنه سمع صائحاً يقول : ألق إزارك عليك !فسقط إلى الأرض ليستتر بإزاره وإذا حفظ من التعرى فما فوقه أحرى من أن يعصم منه، وينهى عنه.

فكان رسول الله ـ ﷺ أودع العلم والحكمة فى الفطرة. وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم. قال الله العظيم:﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(١) فحمد سليمان ولم يلمْ داود.

ولولا ماذكر الله من أمر هذين لرويت أن القضاة هلكوا، فإنه أثنى على هذا بعلمه وعذر هذا باجتهاده.

أخرجه البخارى فى كتاب (الأحكام) فى باب (متى يستوجب الرجل القضاء) من قول الحسن البصرى.

وقد ثبت من حكم سليمان وهو صبىّ يلعب فى قصة الصبى ماثبت فى الصحيحين: أخرجاه عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحدهما فقالت لصاحبتها إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك!فتحاكما إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ فأخبرتاه، فقال : ائتونى بالسكين أشقّه بينكما. فقالت الصغرى: لاتفعل يرحمك الله هو ابنها.فقضى به

(١) سورة الأنبياء الآية ٧٩.

للصغرى. قال أبو هريرة : والله إن سمعت بالسكين ماكنا إلا يومئذ نقول إلا المدية.

وهذا نص صحيح رواه جماعة عن أبى الزناد ، منهم ورقاء وموسى بن عقبة ومحمد بن عجلان ، ذكرهم مسلم فى كتاب (القضاء) من صحيحه وقيدناه فيه.

(فتحاكما) بدون تاء التأنيث .وهو عائد إلى معنى الشخص فيهما وهو مذكر وهو جميعها بتاء التأنيث فى قوله: (فخرجتا) وفى قوله (فأخبرتاه) ونص صحيح البخارى «كانت امرأتان» وأسقط هذه «أنت» وزاد «لاتفعل ، يرحمك الله» ذكره فى كتاب بدء الخلق عند ذكر الأنبياء عليهم السلام.

وكذلك قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل. وأما بعثه فإنه بعث باجماع أهل التوراة وهو ابن ثمانين سنة. وأوحى إلى يوسف عندما همّ إخوته بإلقائه فى الجبّ وهو صبىّ .فهذا فى حق الأنبياء - عليهم السلام ـ فلايقاس بهم غيرهم.

فلا يحل أن يلى الخلافة ولا أمراً من أمور المسلمين دون الخلافة إلا من يكون بالغاً. وحده الاحتلام فى الرجال ،أو أن يبلغ من السن أقصى سن من لايحتلم ، واختلف فيه من خمسة عشر عاماً إلى ثمانية عشرعاما.

وقد اشترط الله تعالى البلوغ فى صحة الرشد حتى يأخذ المال بقوله- تعالى- ﴿وابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾(١) إذ لايصح رشد من صبى لضعف ميزه بوجوه منافعه، وتبذيره لماله الذى جعله الله قواماً للعيش، وسبباً للحياة، وصلاحاً للدين والدنيا، ونهانا عن إضاعته وتبذيره فى غيروجوهه نظراً منه لعباده ورأفة بهم.

فإذا كان الرشد الذى يطلب لصلاح المال لايصح من دون البالغ ولا من البالغ حتى يؤنس منه الصلاح فيه فكيف بالخلافة المشتملة على كليّات مصالح المسلمين، من حفظ الأموال، وحفظ الثغور، وإقامة السياسة،وإرهاب الأعداء ، وإعطاء الجند، والعدل بين الرعية، وإقامة قوانين الدين، ولمّ شعث المسلمين، ودفع المهمّات، والنظر فى الملمات؟

(١) سورة النساء الآية ٦

أليس من شرائط الإمام أن يكون من أهل الاجتهاد على ماذكره أبو المعالى[1] فى الإرشاد وقال هذا متفق عليه .

ومن شرائطها أيضاً. الورع والعدالة، وكيف ينصدى لها من تردّ شهادته إلى غير ذلك من الشروط التى ذكرها العلماء فى الأمامة التى هى الخلافة، ولم يبد أحد لقائل بها خلافه، فكيف يصح ذلك من صبىّ دون البلوغ مع الطمع فيه وقلة نظره وضعف ميزه؟ هل هذا إلا تلاعب بالدين وأطماع للكافرين فى المسلمين ؟ ليت شعرى كيف يستجيز مانع الرشد من دون البالغ أن تصح الخلافة منه فيكون خليفة وليس رشيداً؟ نعوذبالله من الأهواء ،ونسأله استقامة على سواء.إنه على ذلك قدير[2].

ولأربعة أشهر من خلافته عزله قواده وبعض خدمه، وبايعوا عبد الله بن المعتز، وكان من أهل الأدب والشعر وذلك يوم السبت للنصف من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين. وأقام على ذلك يوما وليلة ولم ينزل المقتدر عن سرير ملكه ، ولا أخرج عن دار الخلافة، ثم قبض على ابن المعتز وقتل ، وصفاً الأمر للمقتدر .

ومن حسناته عندهم أنه نظر فى أمر الحلاج وهوالحسين بن منصور بن محمى الحلاج البيضاوىّ من بيضاء فارس ، وجده محمى مجوسىّ .وبيته وأخوته .يعرفون ذلك وأدّعى هو أنه محمد بن أحمد الفارسى من ولد الحسين بن على بن أبى طالب – رضى الله عنه.

وكان فى مازعموا يعرف السحر، تعلمه ببلاد الهند وبلاد السكاسكة وأخباره فى ذلك مشهورة، وذكرها علماء المسلمين وثقاتهم، منهم القاضى الإمام العدل أبو بكر محمد الطيب المعروف بالباقلانى [3] وبعده الإمام الحافظ الثقة أبو بكر بن ثابت

(١) هو إمام الحرمين عبدالملك الجوينى. وتوفى سنة ٤٨٨هـ -١٠٨٥هـ وله الشامل أيضاً يأتى ، وترجمته فى طبقات السبكى ج٣ص ٢٤٩ وفى وفيات الأعيان١ص٤٠٧ كما أن ترجمة والده جاءت فى ج ١ص٣٥٧منه .وكتاب الإرشاد منه نسخ فى دار الكتب المصرية ج ١ص ١٦٣ من الفهرست .

(٢) وتفصيل مبحث الخلافة فى الأحكام السلطانية للماوردى ولأبى يعلى.

(٣) بصرى بغدادى من أكابر علماء الكلام توفى سنة ٤٠٣هـ- ١٠١٢م، ومن مؤلفاته «هداية المسترشدين»، و«الانتصار»، و«كشف أسرار الباطنية» ، و«النحل» ، و«إعجاز القرآن».
وترجمته فى تريخ الخطيب ج ٥ص ٣٧٩، وروضات الجنات ج٤ص١٧٧وأنساب السمعانى ص ١٦١، وقاموس الأعلام ج١ص ٦٨٨ وابن أبى عذيبة ج٣ص ٤٠٠، ودائرة المعارف الإسلامية المترجمة إلى التركية جزء :١٤ص ٢٥٣وابن خلكان ج١ص ٨٦

الخطيب، وأكثر من ذكره فى ترجمة الحسين بن منصور .وذكر إمام المتكلمين وحجة الفقهاء الفروعيين والأصوليين أبو المعالى فى كتابه المسمى بالشامل كثيراً من مخاريق الحلاج فى كتاب (النبوة) فقال ماهذا نصه عن القاضى أبى بكر بعد كلام قبله:

وقد ذكر طائفة من الأثبات الثقات المعتنين بالبحث على البواطن أن هؤلاء الثلاثة تواصوا على قلب الدولة والتعرض لإفساد المملكة واستعطاف القلوب واستمالتها، وارتاد كل واحد منهم قطراً.

أما الجنابى فأكناف الأحساء، وابن المقفع[1] توغل فى أطراف بلاد الترك ، وارتاد الحلاج قطر بغداد فحكم عليه صاحباه بالهلكة والقصور عن مدرك الأمنية واستكمال أسباب المنية عاماً منهما ببعد أهل العراق عن الانخداع. إلى أن قال إمام المتكلمين أبو المعالى: ولامعنى لتضييع الوقت فقد أحسن فيه شيخ الصوفيه الجنيد ـ رضى الله عنه ـ دخل عليه يوماً فقال له الجنيد: بلغنى هذيانك. فقال: مجيباً أنا الحق.فقال الجنيد: أنت الحق وأنت على خشبة تفسدها. فحبس من غد وصلب بعد أيام. انتهى كلام إمام المتكلمين أبى المعالى.

وذكره بعده القول فى إثبات الشيطان فقرنه به وبئس القرين ،وقد ذكره الإمام أبو إسحاق الأسفرايني [2] وغيره بأقبح ذكر.

وكان قد ادّعى أنه المهدى وأنه قدأعطى القدرة وأنه يحيى أصحاب الكهف والرقيم لنصرته وأنه يدفع إلى كل واحد من أصحابه خاتماً طوله وعرضه وسمكه واحد فاذا صارت الخواتيم فى أيديهم أعطوا القدرة وأظهروا من الآيات والأمر البيّن مثل الذى أظهر بسائر المرسلين ـ عليهم السلام ـ وأمر أصحابه بلبس الحرير والديباج وأباحهم المحرمات. وتقدم الى جميعهم بترك الدعاء والتضرع. وعرفهم أن إبليس ـ لعنه الله ـ ليس من خلق الله، وأنه ضد الله ـ تعالى ـ عن قوله! وأنه خالق معه فاذا

---

(١) ابن المقفع بكسر الفاء لأن أباه كان يعمل القفاع ويبيعها.

(٢) أبو إسحاق الأسفرائنى هوإبراهيم بن محمد بن إبراهيم الفقيه الشافعى المتكلم الأصولى المتوفى سنة٤١٨هـ وترجمته فى طبقات السبكى ج ٣ص١١١ ومن مؤلفاته كتاب «الجامع فى أصول الدين والرد على الملحدين» .وهو غير أبى حامد الأسفرايني ، وغير أبى المظفر الأسفرايني صاحب التبصير فى الدين .

خلق الله ـ عـزّوجلّ ـ بطيخـة خلق هو حنظـلة وكـذب وجـهـل لا خـالق إلا الله ـ عزّوجلّ!.

فلمـا كانت سنة إحـدى وثلثمـائة وتقلد أبو الحـسن على بن عيـسى بن داود ابن الجراح الوزارة جدّ فى طلب الحلاج فظفربه وبأخى امـرأته بعد شهرين من ولايته فى بعض نواحى الأهواز ، فجئ بهما ذليلين مهينين فأدخلاً على جملين وعلى رءوسهما برنسان ومعهما من ينادى: هذا الساحر الحلاج الممخرق !وطيف بهما ببغداد.

ثم صلبا فى رحـبة الجسرين بالجـانبين الشرقى والغربى فى سـتة أشهر والصـبيان يلعنونهما ويصفعـونهما ويستخفون بهما وذلك بأمر السلطان وإذن الخلـيفة.ثم حبسا فى المطبق.

وادّعى الربوبية وأضلّ جماعة واتّبعوه على كفره منهم محمد بن عبدالله ابن حزام ولم يزل شره يتفـاقم حتى أمر السلطان بنقله إلى مـجلس فى داره فنقل إليه. فلم يزل يكاتب الناس حتى بايعه جماعة وقدم خليفة.

فلما كان سنـة تسع وثلثمائة أحضر كـتابه بخطه [1] وفيه تفسـيره وقد تضمن من ذكر أرباب عدة وآلهة كثيرة.فدفعـه المقرئ الإمام أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد فنظرفيه الوزير أبو الحسن فلما تبينه استـعظمه ووجه إلى منزل محمد بن على خادمه فقبض عليه وعلى كتبه.

فلما نظر فيـها أبو الحسن وجد فيـها كتاباً فيـه سر الإله وفيه من الكفر والتـجسيم والإلحاد، مالاتقدر أن تنطق به ألسنة العباد، فصفعه ثمانين صفعة وحبسه

ثم إن الخليفـة أمرالوزير حـامد بن العبـاس- وكان قد اسـتورز اثنى عـشر وزيراً فـمنهم من وزرله مـرتين وأكثـر، وكل ذلك من ضـعف النظر وفـسـاد التدبيـر.. أن يتسلمه مع كتبه، وينظر فى أمر الحلاج وحزبه.

(١) من الكتب المنـسوبة إلى الحلاج كتـاب الطواسين وديوان الحـلاج . طبعهـما الأسـتاذ لويس ماسـينيون وكذا طـبع أخبـار الحلاج ، وللعـلاءالبخـارى فى(ناصحـة الموحدين وفـاضحـة الملحدين) وكـذا فى (خيـرانية) وغيـرهما رد عليـه. وهنا المؤلف عين مـراجع مهمـة جداً، وبين آراء العلمـاء فيه .وترجـمة الخطيب البغدادى فى ج ٨ص ١١٢ وابن خلكان فى ج ١ص ٢٠٦

فلما وقف الصلحاء على أمر الخليفة أخرجوا كتابه إلى شاكر بن أحمد بأن يهدم الكعبة ويبنيها بالحكمة حتى تسجد مع الساجدين وتركع مع الراكعين.

وكتابه إلى بعض أصحابه: إن أردت أن تحج فاعمد إلى بيت نظيف فى دارك فقف على بابه مثل الوقوف بباب الكعبة وادخله وأنت محرم. وإذا خرجت منه فأت إلى موضع آخر من دارك فصلّ فيه ركعتين فتكون قد صليت عند المقام. واسع من ذلك الموضع إلى باب البيت الذى دخلته فتكون قد سعيت بين الصفا والمروة.

فأخذ الوزير الكتاب فدفعه إلى قاضى القضاة أبى عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد (١) وكان على مذهب مالك بن أنس وكذلك أهل بيته.

فلما قرأه جعل يخطىء فيه والحلاج يرد ذلك عليه، فقال له القاضى: أراك تحفظه فقال هذاكتابى وعلمى.

فلما أقرّ له بذلك وأسنده عن رجل عن الحسن البصرى قال له: كذبت ياعدوّ الله ياكافر يافاجر يا حلال الدم وذلك مالا أقوله لمسلم. فأخذ الوزير قول القاضى فيه واستفتى الفقهاء فى أمره فأفتوا بقتله. فجمع ذلك وعرضه على أمير المؤمنين المقتدر بالله فلما قرأه قال له: الجواب عنه يأتيك.

فلما كان يوم الاثنين لثمانى ليال بقين من ذى القعدة سنة تسع وثلثمائة ورد عليه الوزير توقيع من الخليفة بأنه إذا كان الأمر على مايقوله محمد بن يوسف وغيره من الفقهاء وكنت تثبت فى أمره وضحت الحجة عليه فتقدّم إلى محمد بن عبد الصمد صاحب المعونة مولى أمير المؤمنين بضربه ألف سوط وقطع يديه ورجليه من خلاف وضرب رقبته وإحراق جثته وتذرية رماده فى ماء دجلة.

فوجّه إلى محمد بن عبد الصمد وأمره بالبكور إليه ليتسلمه منه ويمتثل ماأمره فيه. فلما كان غداة يوم الثلاثاء حمل من دار الوزير واجتمع الناس عليه فى طريقه، فخاف أن يقتلوه، فقال لهم: ليس هذا الحلاج. الحلاج فى دار الوزير. فجئ به فلما ضرب أربعمائة سوط صاح صيحة: قد فتحت الساعة القسطنطينية! فلم يسمع منه

(١) ترجمته منفصلة فى تأريخ الخطيب ج٣ ص ٤٠١.

فلما ضرب ستمائة قال نصيحة : ها هنا رجلان من أولياء السلطان عندهما مائتا ألف دينار! فلم يلتفت إلى قوله وخيف عليه الموت قبل أن ينفذ فيه ماخرج به الأمر، وأمر الجلادون بتخفيف الضرب فخفف عنه باقي الألف.

ثم قطعت يداه ورجلاه ورأسه وأحرقت جثته وذريت فى الماء ورفع رأسه وكبر المسلمون وتذكروا إنذار رسول رب العالمين بالدجالين والكذابين. فظهر صدقه كما قال ، وحقق الله ذلك المقال.

ثبت بنقل العدل عن العدل عن رسول الله- ﷺ- أنه قال : «لاتقوم الساعة حتى يبعث دجّالون كذّابون قريباً من ثلاثين ،كلهم يزعم أنه رسول الله»(١) وقد تكلمنا على هذه اللفظة أعنى الدجال فى المجلد السادس من كتاب العلم المشهور فى فوائد فضل الأيام والشهور». وذكرنا فيها عشرة أقوال.

فالدجال : المموّه على الناس، والملبس عليهم، والمتبوع بجهال يتبعونه. والكذاب خلاف الصادق ،إذ الصدق فى اللغة الثبوت على الشئ والصلابة فيه. يقال : فلان صدق اللقاء ورمح صدق ، أى : صلب ثابت عند الطعن. فقيل لمن قال غير الحق كاذب لعدم ثبوت قوله، وقيل لمن حمل ثم كُعَ: كذب فى حملته ولم يصدق ، أى لم يثبت.

فلما توفى رسول الله ـ ﷺ ـ وولى أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ نبغ باليمامة مسيلمة ـ لعنه الله ـ وادّعى النبوة، وأتى بقرآن ألفه، وكلام ركيك نظمه، يشبه عقله، ويشاكل فى السخافة فهمه وفعله. فقتله الله وعقره ،كما أخبر ﷺ ـ فى الحديث الصحيح الذى ذكره.

ثم ولى عمربن الخطاب - رضى الله عنه - فخوّف الناس، وقصرهم على كتاب الله حتى لقد جاء من يسأله عن ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾(٢) فشرّده عن المدينة وأقصاه بعد التطواف به على أهل مدينة يعرفوا خطيئته، ويتبرأوا من جريرته.

ثم كانت فى أيام علىّ بن أبى طالب- عليه السلام- طائفة ادّعوه إلهاً، فعظم لديه

(١) ورد فى مفتاح كنوز السنة ٤٩٧

(٢) سورة الذاريات الآية ١

أمرهم، واشتد عليه مروقهم من الدين وكفّرهم ،فاستتابهم من قولهم فلم يتوبوا، واستردّهم عن دعوتهم فلم يرجعوا، فعجّل لهم أشد العذاب وعاقبهم بالنار، فازداد بذلك تعظيماً فى أعين أولئك الفجار ، لأنهم قالوا: لايحرق النار إلا رب النار كما ثبت عن النبى المختار -ﷺ- وعلى آله فانتقل من إحراقهم إلى نفيهم عن مواطنهم وخرج من الإحراق الى نوع آخر من العقوبات فى أماكنهم.

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ: وهذا الحديث الثابت حدثنابه المعدل تاج الدين أبو القاسم الفراوى أيام قراءتى عليه بخراسان.قال حدثنا جدى فقيه الحرمين أبو عبدالله الفروای سماعاً عيه.قال: أخبرنا الشيخ الصالح سعيد بن أبى سعيد الصوفى.قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلّدى.قال : أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق السرّاج. قال : اخبرنا قتيبة بن سعيد قال : حدثنا الليث عن بكير عن سليمان ابن يسارعن أبى هريرة أنه قال:

بعثنا رسول الله- ﷺ- فى بعث، فقال: فإن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار. ثم قال رسول الله - ﷺ- حين أردنا الخروج: إنى أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإن النار لايعذب بها إلا الله فإن وجدتموهما فاقتلوهما.

هذا حديث صحيح أخرجه البخارىّ فى كتاب (الجهاد) عن قتيبة وترجم عليه باب (لايعذب بعذاب الله).

ثم ذكره بعده إحراق علىّ- رضى اللهعنه - للقوم ،فقال ماهذا نصه : حدثنا على بن عبدالله قال : حدثنا سفيان عن أيوب عن عكرمة أن علياً حرّق قوماً فبلغ ابن عباس ،فقال : لوكنت أنا لم أحرقهم لأن النبىّ ـ ﷺ ـ قال : لاتعذبوا بعذاب الله،ولقتلتهم كما قال النبى -ﷺ «من بدل دينه فاقتلوه»(١).

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ: وعلىّ- رضى الله عنه - إنما حرّق جثثهم بعد قتلهم بالسيف. ذكر ذلك الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ فى كتاب (التمهيد) (٢)

(١) ورد فى مفتاح كنوز السنة

(٢) هو التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد. قال ابن حزم: وهو كتاب فى الفقه والحديث ولا أعلم نظيره. واختصره وسماه الاستذكار، ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية. وله مختصرات أخرى.

وعندى منه أصله، ذكره فى مرسل زيد بن أسلم قال: وروى من وجوه أن علياً إنما حرقهم بعد ضرب أعناقهم. ذكر ذلك عدلان حافظان: أبو جعفر العقيلىّ وأبو زيد عمر بن شبّة. قال العقيلى حدثنا: محمد بن إسماعيل قال: حدثنا شبابة وقال : ابن شبّة حدثنى محمد بن حاتم قال : حدثنا شبابة بن سوار قال حدثنا خارجة بن مصعب عن سلام بن أبى القاسم عن عثمان بن أبى عثمان قال : جاء ناس من الشيعة إلى على فقالوا : ياأمير المؤمنين، أنت هو، قال من أنا ؟قالوا: أنت هو قال : ويلكم من أنا؟ قالوا: أنت ربنا. قال: ويلكم ارجعوا وتوبوا. فأبوا، فضرب أعناقهم ثم قال : ياقنبر، ائتنى بحزم الحطب فحفرلهم فى الأرض أخدوداً فأحرقهم بالنار ثم قال:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت نارى ودعوت قنبرا[1]

وفى أيام المقتدر قوى القرمطىّ أبو طاهر، وقصد مكة وقلع الحجر الأسود كما تقدم ذكره[2].

وخرج عليه الديلم. وسبب ذلك اختلاف الوزراء وسعاية بعضهم فى بعض ولم يكن فيهم من يحفظ حزباً من كتاب الله - عزّ وجلّ-، ولا حديثاً صحيحاً عن رسول الله-ﷺ-، بل كانوا يميلون إلى النجامة، حتى تفرقت الكلمة، وذكرت أسماء الخوارج على المنابرمع الخلفاء فى خطب الجمع والأعياد، حتى قوى أمر بنى القداح[3] بالمغرب.

وانتسبوا إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، قتلوا بسجلماسة ثلثمائة ألف رجل، وذبحوا فى المهود مائة وخمسين ألف صبى. قتلهم أبو محمد الملقب بالمهدى، وهو

(١) وهؤلاء النصيريةوالعلى اللهية. وجاء ذكرهم فى مؤلفات عديدة .ولا يزالون منتشرين . وتعرضت لهم فى (تأريخ العراق بين احتلالين) ج ٢ص ١٨٠-١٨١وج ٣ص ١٢٥و١٥٣و١٥٦.والشامغانى منهم .وترجمته فى رجال أبى على وعدة من الغلاة وفى ابن أبى عذيبة ج ٣ص٢٠٧ومنهم الشيخ رجب البرسى وله كتاب مشارق الانوار.وفى دبستان مذاهب تفصيل أحوالهم.

(٢) أبو طاهر هوسليمان بن أبى سعيد الحسن بن بهرام القرمطى رئيس القرامطة وقد أوضح فى وفيات الأعيان ج ١ص ٢٠٨عنهم كما أن ابن الأثير أطنب فى ذكرهم.

(٣) بنو القداح يريد بهم الفاطميين فى مصر وكانوا قد ظهروا بسجلماسة . ودام حكمهم بمصر إلى سنة ٥٦٧هـ أولهم عبيد الله المهدى وآخرهم العاضد . الدول الاسلامية ص ٨٠، والفاطميون بمصر المقدمة- ت.

عند أهل المشرق عبد الله ابن الأئمة المستورين فيما يزعم، وعند أهل سجلماسة عبيد الله وعبيد. وأخباره فى نهاية من الطول، تخرج عن الغرض المطلوب والمأمول.

وذكر عباس بن محمد فى تأريخه حين ذكر المهدى هذا، فقال واختلف الناس فى نسبه فمن الناس من قال: إنه من أبناء اليهود.

وأما القاضى محمد بن خلف وكيع فأنه ذكر أنه من سواد البصرة من عرض الناس يسمى عبد الله بن عبد الرحيم. فلما ملكوا البلاد المصرية، وتحكمت سيوفهم فى هام البرية، أرسلوا الى ابن خداع الحسينى النسابة بزعمه، البايع آخرته بزهيد الثمن فى حكمه، فأخرج لهم النسب، ووصل لهم السبب، فقدموه على دمشق طعمة له على ذلك، وسيعلم فى الآخرة ما هنالك.

وكان فى العراق قد أنكرهم، فلما أطعموه أثبتهم وذكرهم. ثم تلاه فى أفعاله، ونسج على منواله ، من سكن مصر أو دخلها من النسابين، ولا سيما أبو الغنائم فأنه أتى فى هذه بالجرائم (١).

وقتل القرمطى الخلق العظيم بالعراق والجزيرة والشام إلى أن عاد إلى الأحساء وملكها.

ووزراء الخليفة فى ذلك كله يتنافسون فى صيد الدرّاج، ويتثرون على راميها المال الجزل، ويدخلون فى الشريعة اللعب والهزل، ومن اتبع الصيد غفل، وعن الطريق المستقيم عدل.

فخلع مرتين: مرة بابن المعتز ومرة بالقاهر. وفيها أزيل عن سرير ملكه، وأخرج عن دار الخلافة للنصف من محرم سنة سبع عشرة وثلثمائة (٩٢٩م) وبويع للقاهر، وجلس على سرير الملك، ثم قبض على القاهر وأعيد أخوه المقتدر إلى خلافته يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم.

وكان قد غلب عليه أصحاب الدواوين، فلا ينفذ له أمر دونهم، وراسلوا النساء والخدم، وكلفوا الناس المغرم، وأعدموا خزائنه الدينار والدرهم. وجعلوا جارية من

(١) فى خطط المقريزى تفصيل ذكره فى المجلد الثانى ص ١٥٨ والفاطميون فى مصر ص ٦٧ ـ ٧٩ وكذا فى الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التأريخ.

جواريه، تعرف القهرمانة، تجلس للمظالم، ويحضرها الوزراء والقضاة والعلماء.

وبطل الحج فى أيامه، فلم يحج أحد سنة سبع عشرة وثلثمائة لدخول سليمان القرمطى (١) صاحب البحرين مكة وأخذه الحجر الأسود. دخلها يوم الاثنين لسبع خلون من ذى الحجة، وأخذ الحجر يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة، وأقام بها ثمانية أيام ولم يبطل الحج منذ كان الإسلام غير تلك السنة.

واستوزر اثنى عشر وزيراً، يولى هذا اليوم ويصانع الخدم فيعزله غداً، ويولى الذى رشا الخدم إلى أن أخرجه قرناه السوء ليتفرج على اللاعب فى الميدان، على ما ذكره الفقيه على مذهب أبى حنيفة أبو الفضل محمد بن يوسف الغزنوى (٢) فى تأريخه، وأنا برىء من عهدته. قال: الغزنوى وكان اللاعب من موالى أبيه المعتضد، وقد كان تولى قتل المتوكل موالى أبيه المعتصم. والعرب تقول:

من استعمل العبيد، فرأيه غير سديد.

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ : واعلم أن مما تشين دول الملوك ، وتسلك بهم الطريق غير المسلوك، المصاحبة المشوبة بالمساخر، وهى التى ترد الأول فى التقديم كالآخر، وتميت القلوب، وتهين الملك فى العيون لكل مصحوب.

وهل تكون الهيبة قائمة المنار، مع مسخرة يوجب الضحك بقبيح العار؟ ولا سيما أن ضم إلى ذلك شىء من المحرمات، من كشف عورة أو نطق فحش بكلمات، أو اعتماد على ما منعه الله – تعالى – فى الآيات، فذلك عنوان الفساد بل عينه، وربما منع الله به من الخير ما قد غلق رهنه ودينه.

أصلح الله سلاطين المسلمين، وجعلهم أبداً بالهيبة موصوفين، وبإقامة شعائر الإسلام معروفين.

قال الغزنوى: فلما رأى اللاعب الناس قد بعدوا عن المقتدر لكى ينظر إلى اللاعب، ركض اللاعب فرسه وقام على ظهره وهو يجرى والمقتدر ينظر إلى فعله

(١) أخبار القرامطة قد فصلها ابن أبى عذيبة فى تأريخه ج ٣ ص ١١٥ وص ١٦٩.

(٢) الإمام أبو الفضل الغزنوى البغدادى كان من أكابر المحدثين والقراء والفقهاء المدرسين، ولد ببغداد سنة ٥٢٢هـ وتوفى سنة ٥٩٩هـ. وتأريخه درس بالقاهرة جاءت ترجمته فى الجواهر المضية ج ٢ص ١٤٧.

وهو يتصرف كيف شاء بالسلاح، فلما انكشف الناس عنه أقبل عليه فضرب الخليفة بالزوبين فى صدره فأخرجه من ظهره؛ فصاح الناس، ولم ينتطح فيها عنزان، ولا طلب دمه من عسكره اثنان. والزوبين حربة عريضة تنفذ كل شئ وهى زى الديلم. أنشدنى سيدى أبى - رحمه الله تعالى:

فأمر أبا حسن فأمرك نافذ أمضى وأنفذ من حراب الديلم

ثم إن اللاعب تم يطلب دار الخلافة نحو القاهر، فلقيه حمل شوك فى سوق الثلاثاء فعدل عنه، وهو لا يبصر من عن يمينه وشماله، فصادفه كلاب فى دكان قصاب وهو غافل لايبصر فعلقه الكلاب وخرج الفرس من تحته فبقى معلقاً فيه، فمات فى الوقت، وحطه الناس فأحرقوه بحمل الشوك.

وكان قتله يوم الأربعاء لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشرين وثلثمائة (٩٣٢م)[١]. وله ثمان وثلاثون سنة وشهر وسبعة عشر يوما.

والعجب أن مقتل جعفر المتوكل وجعفر المقتدر جميعاً فى شوال.

وكانت خلافته النكدة أربعاً وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام وقيل : وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوما. فالصحيح أن قتله كان بالسيف فى الحرب بينه وبين مؤنس الخادم الملقب بالمظفر. ذكره الثقة القاضى أبو بكر أحمد بن كامل بن شجرة إذ كان شاهد ذلك وألف فيه ونقله منه، وذكره أيضاً محمد بن عبد الملك الهمذانى فى كتاب (عنوان السير) له.

ثم قرأته أيضاً فى تأريخ الشريف أبى محمد هارون بن العباس بن المأمون، وذكر أن البربر من أصحاب مؤنس أحاطوا بالمقتدر. وتقدم إليه رجل منهم فضربه من خلفه ضربة سقط منها إلى الأرض، فقال: ويحكم، أنا الخليفة. فقال البربرى إياك أطلب. وأضجعه وذبحه، وكان معه رجل من الحجاب طرح نفسه عليه، فذبحه أيضاً. ورفع رأس المقتدر على سيف، ثم على خشبة، وسلب ثيابه حتى سراويله، وبقى مكشوف العورة إلى أن مر به رجل من الأكرة فستر عورته بحشيش ثم حفر له فى الموضع ودفن حتى عفا أثره.

(١) جاءت ترجمة الخليفة المقتدر فى تاريخ الخطيب ٧ص ٢١٣.

وانحدر مؤنس من الراشدية إلى الشماسية، فبات بها، وأرسل الى دار الخليفة من يحفظها حتى يصل إليها، فلما وصل تحكم على الخلافة واختار وقدم القاهر بالله ثم أراد خلعه وتقليدها للمكتفى بالله فراسل القاهر الساجية وأعدهم فى الدار، وتحيل على مؤنس حتى حصله مع جملة أصحابه الاشرار، فأمر بقتلهم وقطع رءوسهم وإخراج الرءوس فى ثلاث طساس إلى الميدان، ولم يكن لهم بدفع ما أصابهم من الله يدان.

وكان المقتدر سمحاً جواداً، كان يصرف إلى الحرمين، وفى طريقهما ثلثمائة ألف دينار وخمسة عشر ألف دينار وأربعمائة وستة وعشرين ديناراً ونصف دينار.

وكان يصرف إلى الثغور أربعمائة ألف دينار وأحداً وتسعين ألف دينار وأربعمائة وستة وخمسين ديناراً، وكان يجرى على القضاء فى كل الممالك ستة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وأحداً وأربعين ديناراً، كان يجرى على الفقهاء بالحضرة ثلاثة عشر ألف دينار وخمسمائة وتسعة وستين ديناراً، وعلى من يتولى الحسبة والمظالم فى جميع البلاد أربعة وثلاثين ألف دينار وأربعمائة وتسعة وثلاثين ديناراً وغير ذلك من الجرايات على أصناف الناس وطبقاتهم.

فأنفق ما كان فى بيوت الأموال وولى الخلافة وبيت المال اثنان وسبعون ألف ألف دينار، فأنفقها مع خراج الممالك.

وحكى أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب صاحب (تأريخ البصرة) فى كتابه المسمى بـ (لوامع الأمور وحوادث الدهور) أن المقتدر بالله اجتبى من الأموال فى أيام خلافته سبعمائة ألف ألف وخمسين ألف ألف دينار فأنفق ذلك كله.

ومات فى أيامه خمسة عشر ألف أمير ومقدم ومذكور وكانت والدته تطوى عنه الأخبار من الرزايا والفجائع وتقول: إظهارها يؤلم قلبه فأدّى ذلك إلى غاية الفساد، وقتل بين شرار العبيد.

وماتت أمه بعده بسبعة أشهر وثمانية أيام فى جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة . بعد مصادرات أنفقت عليها، وسهام سددت إليها، ولم يكن لامرأة من الخير ما كان لزبيدة ولها . وكانت مواظبة على صلاح الحاج وإنفاذ خزانة الطيب والأشربة إلى الحرمين المعظمين، وإلى طريقهما وإصلاح الحياض.

وكان يرتفع لها من ضياعها الخواص ألف ألف دينار فى كل سنة تتصدق بأكثرها.

ثم صارت الخلافة الى القاهرة بالله [1]

أبى منصور محمد بن أبى العباس المعتضد، يوم الخميس من التأريخ المذكور، بعد قتل أخيه المقتدر وإخراجه من الحبس، فوجد الخزائن فارغة والكلمة مختلفة، ولا سيما بتدبير وزيرين ضعيفى الرأى قد أشتهر بالبخل وقلة التوسط للناس بالخير وحض الخليفة على نهب المال وكثرة القتل: أبى على محمد بن أبى العباس على بن الحسن بن مقلة ثم أبى جعفر محمد بن القاسم بن محمد الكرخى قربة من أرض البصرة. فخلع الخليفة يوم الأربعاء سادس جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة (٩٣٤م) ، وكحل بالنار بمسمار محمىّ دفعتين حتى سالتا بعد أن أقيم بين يدى الراضى، وسلم عليه بالخلافة . فكان القاهر أول من سمل من الخلفاء . ولم يزل باقياً فى دار الخلافة إلى أن أخرجه المستكفى فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة، ورده إلى داره فأقام مدة.

ثم خرج إلى جامع المنصور فى يوم جمعة، وقام فعرّف الناس نفسه، وسألهم أن يتصدقوا عليه. أراد بذلك التشنيع على المستكفى بالله، فقام إليه أبو عبد الله بن أبى موسى الهاشمى ، فأعطاه ألف درهم، وردّه إلى داره بالحريم.

وتوفى فى خلافة المطيع لله لثلاث خلون من جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وثلثمائة (٩٤٨م) ، فى دار ابن طاهر، ودفن إلى جانب أبيه المعتضد بالله.

وله اثنتان وخمسون سنة وكانت خلافته سنةً وستة أشهر وثمانية أيام، ولما قبض عليه ـ كما قدمنا ـ سلّمت الخلافة إلى الراضى بالله.

---

(١) انظر: تاريخ الخميس٢/ ٣٤٩ ـ ٣٥١، مروج الذهب ٢/ ٤٠٠، النجوم الزاهرة ٣/ ٣٠٣، نكت الهميان ٢٣٦، تاريخ بغداد ١/ ٣٣٩.

ثم صارت الخلافة إلى الراضى بالله[1]

أبى العباس محمد بن المقتدر وهوالذى ضرب الدراهم الراضوية. وكان بليغاً شاعراً جواداً. وهو الذى وهب لعبد الرحمن بن عيسى مائة ألف دينار، فى حكاية مشهورة.

كان اعتقله بسببها، فوهبها له، وأطلقه إلى منزله، وعفا عن أخيه العباس ابن المقتدر. وقد كان بلغه أنه قد أزمع على نكث بيعته فقبض عليه ليلة النصف من رجب سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة، وأحضر القاضى والشهود، وقال : إنى قد آثرت الدين والمروءة على ما توجبه السياسة فى حق أخى، فخذوا علية البيعة، وأفرجوا عنه، وأعطوه ما يحتاج إليه. الحكاية بطولها.

من شعره - رحمه الله:

لا تعذلى كرمى على الإسراف ... ربح المحامد متجر الأشراف

أجرى كآبائى الخلائف سابقاً ... وأشيد ما قد أسست أسلافى

إنى من القوم الذين أكفهم ... معتادة الإخلاف والإتلاف

والراضى آخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة. ولما أراد الخطبة نفذ إلى الفقيه أبى محمد إسماعيل بن على ، وقال له: عزمت على أن أصلى بالناس غداً صلاة العيد، فكيف أقول إذا بلغت الدعاء لنفسى ؟ قال : تقول ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [2] (الآية) فقال: حسبك! وخرج ، وتبعه خادم بخمسمائة دينار وثياب ففرّقها.

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ : انظر ما أحسن هذا القول من السائل والمسؤول!

ومعنى قوله - جلّ وعلا- ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾[3] أى : ألهمنى . والمعنى فى اللغة كفّنى عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك أى : كفّنى عما يباعد منها.

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ٣٩٠ ـ ٣٩٤.

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٥ وسورة النمل الآية ١٩.

(٣) سورة النمل الآية ١٩.

وهو الذى ولّى مصر محمد بن طغج الأخشيد [1] ، ولقبه الراضى بالله بالأخشيد لأنه فرغانى وكل ملك بفرغان يسمى الأخشيد.

قال ابن زولاق : معناه ملك الملوك ككسرى فى الفرس، وغير ذلك من الأسماء التى ذكرناها للملوك فى كتابنا المسمى (بالعلم المشهور). وهذا اللقب أوقعه الخليفة الراضى فى موقعه لتقدم ملكه فى موضعه لأنه أبو بكر محمد بن صغج يكنى طغج أبا محمد بن جف بن بلتكين بن قورى بن خاقان صاحب سرير الذهب وهو ملك فرغانة. وتفسير طغج عبد الرحمن.

فاستولى الأمير أبو بكر محمد بن طغج على مصر والشام والحجاز. وتوفى بدمشق لثمان بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة. وكان مولده ببغداد بشارع باب الكوفة للنصف من رجب سنة ثمان وستين ومائتين. وكان جيشه يحتوى على أربعمائة ألف رجل، وله ثمانية آلاف مملوك، يحرسه فى كل ليلة ألف مملوك. ويوكل بجانب خيمته الخدم، ثم لا يثق حتى يمضى إلى خيم الفراشين فينام فيها. ذكره القاضى أبو علىّ التنوخىّ وكان بخيلاً جباناً. ذكره الفقيه المتصدر بجامع مصر الحسن بن إبراهيم بن زولاق:

وبئست الخلتان الجبن والبخل

ولما مات بدمشق ثارت الفتنة ونهبت خزائن الأخشيد وإصطبلاته، فلما هدأت الفتنة بعد ثلاث وجد الملك الأخشيد قد انتفخ وقد أكل الفأر أطراف أصابع يديه ورجليه وأكل الذرّ عينيه، فغسل بماء وطلب له كافور فلم يوجد إلا من السوق مغشوشاً، وطلب له بغل يحمل تابوته، فلم يوجد له إلا جمل أعور، فحمله عليه الخازن وسار به إلى بيت المقدس، والذين معه من السودان يتأذّون بريحه، فإذا نزلوا بعدوا منه إلى أن وصلوا به بيت المقدس فدفن هناك.

(١) أن لفظة أخشيد متكونة من (آق) بمعنى أبيض أو بيضاء(وشيد) براد بها الشمس، فيكون المجموع بمعنى الشمس البيضاء. كذا قاله فى (صحائف الأخبار) لمنجم باشى فى تحليل أصل اللفظ وترجمة الأخشيد فى ابن خلكان ج ٢ ص ٥٩. ولى إمارة مصر، وخلفه فيها ابنه أنوجور، ثم على بن الأخشيد. وبعده صار أبو المسك كافور. وكان آخرهم أبو الفوارس أحمد بن على فاستولى الفاطميون على مصر. (دول اسلامية).

قال ذو النسبين- أيده الله - : فلينظر الناظر ما صار إليه هذا الملك بعين الاعتبار، ففيه عبرة لأولى الأبصار. فبعد الملك والرجال، وكثرة ما جمع من المال، صار مآله إلى هذا المال ، تستقذره نفوس السودان، وصار طعمة للفأر والذرّ والديدان.

ذكر ابن زولاق فى حكاية أنه خلف بمصر عشرين بيت مال عندما رحل إلى الرقة، وذكر عن صالح بن نافع أن الأخشيد أوقفه على سبع مطامير، فى كل مطمورة ألف ألف دينار من سكة واحدة، مطمورة من الدنانير الأحمدية والخمارية، ومطموره مقتدرية، ومطمورة من سكة المكتفى، ومطمورة راضوية ومطمورة من سكة المتقى ومطمورة أخشيدية ومطموره مغربية (١)، ومطمورة من خلط دنانير العراق، وذكر عن الوزير أبى بكرمحمد بن على الماذرائى أنه قال لأم ولد الأخشيد ما فعل السبعة أراد بأخذها منى دفعة؟

- ما أتفق منها ديناراً واحداً!

وخلف من الجواهر ما قيمته مائتا ألف دينار، وخلف من العنبر ثمانمائة رطل، ومن الثياب والأوانى ما يكثر تعداده ، ومن الخيل والبغال والدواب ما يكثر إيراده ، مما ذكره الثقة ابن زولاق وغيره.

ومائة مركب للحرب بالسلاح والنفط والرجال سوى العشاريات (٢) يقع عليه كل مركب بثلاثة آلاف دينار.

---

(١) الدنانير الأحمدية نسبة إلى أحمد بن طولون. والخمارية بن أحمد بن طولون وأما الباقية فمنسوبة إلى الخليفة الراضى وهى الراضوية، والأخشيدية إلى الأخشيد المذكور سابقا. وأما المغربية فإنها نقود مصرية مضروبة هناك، وقد ضرب منها ما هو مؤرخ فى سنة ٣٠٤هـ هو باسم ذى اليمينين أبى الطيب طاهر بن الحسين من أمراء المأمون، وأما السرى المذكور فى النقود فهو السرى بن الحكم. وسبب تسميتها أنها جاء فى صفحة منها فى أسفلها لفظ (المغرب) . وهذه هى التى أشار إليها صاحب النبراس باسم مغربية. وقد جاء ذكر ذلك منفصلا فى كتاب المسكوكات وفى المتاحف .

(٢) نوع سفن معروفة قديماً فى مصر. وجاء ذكرها هنا فى أيام الخليفة الراضى بالله فى عهد أميرها الأخشيد المذكور ، كما وردت فى (الإفادة والاعتبار) للموفق عبد اللطيف البغدادى وفى (قوانين الدواوين) لأسعد بن مماتى وفى (خطط المقريزى) وأوضح عنها محمد ياسين الحموى فى (تأريخ الأسطول العربى) ص ٣٧ وغيره. وهكذا مر ذكر البوارج أيضاً فى أصل هذا التاريخ.

فيا أخا الدول والممالك ! هل أنت إلا هالك وابن هالك؟ وصائر إلى ذلك المصير؟ ومختلس من الظهير والنصير! ثم تسأل عن الفتيل والنقير! والجليل والحقير!؟

أنشدنى سيدى الفقيه الأستاذ اللغوى النحوى المحرز لقصب السبق فى كل خير، أبو بكر محمد بن خير، قال: أنشدنى القاضى الخطيب شيخ المقرئين بالأندلس أبو الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعينى قال : أنشدنا فى كتابه إلينا سنة إحدى وخمسين وأربعمائة الحافظ المستبحر فى كل العلوم أبو محمد على بن أحمد بن سعيد الفارسى لنفسه:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأنكرنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة ... تولّت كمرّ الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات فى المعاد وموقف ... نوذ لديه أننا لم نكن كنّآ
حصلنا على هم وإثم وحسرة ... وفات الذى كنا نلذّ به عينا
حنين لما ولى وشغل بما أتى ... وغمّ لما يرجى فعيشك لا يهنا
كأن الذى كنا نسر بقربه ... إذا حققته النفس لفظ بلا معنى

وكان أصحاب الخليفة ينفردون بالأمر دونه، ولا يقدر لضعفه أن يغيره، فتقسمت البلاد، وظهر الفساد، واسترجع الروم عامة الثغور، ووزر له كل فجور، وهم وزراء القاهر فأفسدوا دولته، وفرقوا كلمته.

وكتب ابن مقلة إلى بجكم التركى يطمعه فى بغداد . فتقدم الراضى بقطع يده، وقال : هذا سعى فى الأرض بالفساد . وكان ينوح على يده ويقول:

قد خدمت بها ثلاثة خلفاء، وكتبت بها القرآن دفعتين، تقطع كما تقطع أيدى اللصوص !. وقطع لسانه حين قرب بجكم من بغداد.

ولم يكن فى زمانه من يساويه فى حسن الخط ولباقة الأنامل على الأقلام وسرعتها فى المكاتبات. وكان يقول : الخط تسعة وعشرون حرفاً ، فمن أراد أن يتعلم الخط فقصاراه أن يتقن فى كل يوم حرفاً، فإنه يتقن الخط فى تسعة وعشرين يوماً.

قال ذو النسبين - أيده الله - هذا غير صحيح لأن الحروف العربية متشابهة الصور كالباء وأخواتها والجيم وأخواتها ، وإنما جملتها تسع عشرة صورة، فإذا حذقها حذق الجميع فى دون المدة التى ذكرها.

فتوفى الخليفة ببغداد ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلثمائة (٩٤١م) ، ودفن بالرصافة فى تربة عظيمة.

أنفق فيها أموالاً كثيرة، وله اثنتان وثلاثون سنة وأشهر ، فكانت خلافته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وقيل : وتسعة أيام.

obeikandl.com

ثم صارت الخلافة الى أخيه المتقى لله [1]

أبى إسحاق إبراهيم بن جعفر المقتدر. بويع له يوم الخميس لتسع بقين من شهر ربيع الاول سنة ، تسع وعشرين وثلثمائة (٩٤١م). وكانت داره بحضرة دار البطيخ بأعلى الحريم الطاهرى المنسوب لابن طاهر مولى خزاعة. وهى المعروفة بالفخرية.

ولما حمل منها إلى دار الخلافة، صعد إلى رواق التاج ، فصلى فيه ركعتين على الأرض ، ثم جلس على السرير وبايعه الناس . وكان عابداً يصوم كثيراً ويتصدق، ويقول : نديمى المصحف. ولم يشرب خمراً قط، ولذلك لقبّه الصولى - رحمه الله - بالمتقى لله . ومدحه بقصيده هى محفوظة عند الناس.

ولما ولى الخلافة لم يتغير على أحد ممن كان صحبه قبلها، حتى على جاريته التى كانت معه قبل، ولم يغدر بأحد قط،وكان أبىّ النفس، وفىّ العهد حسن الخلق والخلُق إلا أن الله تعالى - لم يوفق له أصحاباً.فأشاروا عليه بالخروج عن بغداد ، فخرج منها ومعه ألفا ألف دينار ونيف.

فأتاه الأمير محمد بن طغج الأخشيد من حلب، وحمل إليه ثلثمائة ألف دينار، أهدى لجميع أصحابه هدايا كثيرة، وسأله أن يقصد معه الشام ومصر، فأبى، وأشار عليه بالمقام مكانه فلم يقبل ،وأنفذ من جدد على توزون التركى أمير بغداد الأيمان والعهود والمواثيق.

وانحدر إلى بغداد فخرج توزون لاستقباله، وترجّل له، وقبّل الأرض بين يديه. ومن شك فى غدر الترك أوقعه فى الهلك.

وفى وقته ملك بنو حمدان التغلبيون سيف الدولة وناصر الدولة الجزيرة والشام، واختلفت آراء وزرائه وكثر التحاسد بينهم، ومطالبة بعضهم بعضاً فأفسدوا عليه فغدر به توزون- قبحه الله.

وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرىّ، قال : قال رسول الله-ﷺ-: «لكل غادر لواء عند إسته يوم القيامة». وفى الباب عن ابن عمر إذا جمع الله الأولين والآخرين

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ٣٩٤ ـ ٣٩٧

يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء. فقيل هذه غدرة فلان بن فلان. وقد ذكرناه في أول هذا الكتاب. وإن حديث ابن عمر متفق على صحته.

فخلعه توزون، وكحله بالنار، وسملت عيناه على نهر عيسى يوم السبت لعشر ليال بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة، وله ثلاثون سنة وأشهر. فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً. وتوفي بعد خمس وعشرين سنة من خلعه ودفن في داره المعروفة بدار إسحاق بن إبراهيم المصعبيّ، وعمره ستون سنة وأيام. وأمر المطيع لله أبا تمام الزيديّ فصلى عليه وكبّر خمسا. ثم ابتاعها عزّالدولة أبو منصور بختيار ابن أمير الأمراء معزّالدولة أبي الحسين أحمد بن بويه بثلاثين ألف دينار فنقلوه إلى تربة بإزائها فامتحن في الحياة وبعد الممات.

ثم صارت الخلافة بعد خلعه (١)

إلى ابن عمه المستكفى بالله أبى القاسم عبدالله بن المكتفى بن المعتصد فى الوقت الذى سملت فيه عينا المتقى، فاستولت الديلم على البلاد (٢). وظهرت بين وزراته وأصحابه الشحناء والأحقاد، فقبض عليه وكحل، وسملت عيناه يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة.

وذلك على يدى معز الدولة، بل مذلّها، ابن بويه الديلمى (٣).

وله ثلاث وأربعون سنة وأشهر. فكانت خلافته سنة وأربعة أشهر ويومين وتوفى بعد مدة من خلعه فى محبسه، ليلة الجمعة لأربع عشرة بقين من شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين(٤).

---

(١) انظر: التبر المسبوك ٥٢.

(٢) الديلم يقصد بهم آل بويه ، دخلو ا بغداد فى ١٢ جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ. دخلها معز الدولة بن بويه .

(٣) معز الدولة بن بويه : جاءت ترجمته فى ابن خلكان ج ١ ص ٧٨ وحوادثه فى الكامل لابن الأثير ج ٨ص ١٦٠وما بعدها. كذا فى تاريخ ابن أبى عذيبة ج٣ص ٢٢٤ وهناك تفصيل .

(٤) فى تاريخ الخطيب ترجمته ج ١٠ص ١٠، وفى الكامل لابن الاثير ج ٨ص ١٤٩-١٦١.

ثم صارت الخلافة إلى ابن عمه المطيع لله (١)

أبى القاسم الفضل بن المقتدر بالله فبويع له فى يوم الخميس المذكور. وهو أول من طال عمره من خلفاء بنى العباس على من تقدم. لأنه بقى فى الخلافة إلى ذى القعدة سنة ثلاث وستين وثلثمائة. فكانت مدته تسعة وعشرين سنة وأربعة أشهر وأحداً وعشرين يوماً.

ولم يكن له من الخلافة سوى الاسم، والمدبّر للأمور،والحاكم على الجمهور، أحمد بن بويه الديلمى معزّ الدولة.

وحمل الخليفة معه إلى البصرة .ولم يدخل البصرة خليفة محارب إلا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب- رضى الله عنه - والمطيع لله.

ثم حمله معه إلى الأهواز، ثم إلى الموصل، وأقام لنفقة الخليفة كل يوم مائتى دينار.

وكان المطيع لله كريماً حليماً، وصل العلويين والعباسيين فى يوم واحد بنيّف وثلاثين ألف دينارعلى قلة ذات يده.

وكان يجرى على ثلاثة خلفاء ،خلعوا وسملوا، وهم: القاهر، والمستكفى، والمتقى،لكل واحد منهم فى كل شهر .ولم يتعرض لأحد من قرابته بسوء.

وكان يقول : ماأرى التعرض للأهل، و لا أستجيز الإساءة إلى أحد . فقد كان لحقنى من المستكفى ماأحسن الله العاقبة إلىّ فيه، وعاد بالقباحة وسوء العاقبة عليه.

وقال قاضى القضاة أبو محمد بن مَعروف (٢): دخلت على المطيع لله وهو متشكّ. فقلت: كيف مولانا، جعلنى الله فداه؟فقال : لاتقل هذا ،ليست الحياة بلا إخوان طيبة .

وكان ينفذ كل سنة إلى الكعبة قناديل ذهب وفضة ، وإلى الحجرة المقدسة طيباً كثيراً ، وخداماً، ليكونوا فى خدمتها.

---

(١) انظر: التبرك المسبوك ٥٢.

(٢) أبو محمد بن معروف قاضى قضاة بغداد، توفى فى ٧ صفر سنة٣٨١ هـ . وترجمته فى الخطيب البغدادى ج ١٠ص ٣٦٥.

وذلك أنه كان يصل له من ابن الأخشيد، صاحب مصر والإسكندرية والشام وقبرص ، فى كل سنة ،مائة ألف دينار. وكتب بذلك عهداً لأنوجور ابن الأخشيد بولاية الجميع سوى الخطابة، والحكومة، وسوى ما للخليفة من حاصل أملاكه، وعلى أن يحمل إلى طرسوس خمسة وعشرين ألف دينار فى كل سنة، ويفرّق فى المستحقين ببلاده مائتى ألف دينار، ويجرى فى المواريث على الرد على ذوى الأرحام، كما أجراه المعتضد بالله.

فلم يزل على ذلك إلى أن خرجت مصر عن أيديهم، وغلب كافور الأخشيدى[1] الخادم. وكان الأخشيد قد ابتاعه بثمانية عشر ديناراً، فاستولى على مصر والشام الأعلى مدة اثنتين وعشرين سنة .، وتوفى لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة.

وكان كريماً متواضعاً، سقطت المقرعة من يده وإلى جانبه الشريف أبو جعفر مسلم بن طاهر، فبادر بالنزول، وأخذها من الأرض ودفعها إليه، فقال:

أيها الشريف، أعوذبالله من بلوغ النهاية، ماظننت أن الزمان يبلغنى حتى يفعل لى هذا.

وكان يبكى ، فقلت : أنا صنيعة الأستاذ ووليّه ، فلما بلغت باب داره ودعته وانصرفت، فاذا أنا بالبغال والجنائب بمراكبها، وكان ثمنها يزيد على خمسة عشر ألف دينار، فقبضت جميعها ودعوت الله له .

وفى أيامه لخمس سنين خلت من خلافته، أعيد الحجر الأسود إلى موضعه من البيت الحرام، فى ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وثلثمائة . وكان أخذه فيما صحّ، فى أيام المقتدر . كما تقدم وقد ذكرنا ذلك كله.

(١) جاءت ترجمة كافور الأخشيدى فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٦١٤ .وهو ممدوح أبى الطيب المتنبى. ثم هجاه. استقل بالمملكة فى المحرم سنة ٣٥٥هـ وتوفى فى جمادى الأولى سنة ٣٥٦هـ. وكان قدولى إدارة المملكة وتدبيرها بعد وفاة الأخشيد وقيام ولده أبى القاسم أنوجور فى ذى الحجة سنة ٣٣٤هـ. وفى تأريخ ابن أبى عذيبة ج ٣/ ص٣١٨ تفصيل عن الأخشيدية وكافور.

وإن الحجر الأسود أقام عند القرامطة [1] واثنتين وعشرين سنة إلا شهراً وإنه أعيد لخمس خلون من ذى الحجة. وذكرنا اشتقاق قرمط ونكتاً من أخباره المسترذلة وآثاره القبيحة المستفحلة فى فضل المحرم فى كتاب (العلم المشهورفى فوائد الأيام الشهور) عند ذكر مكة شرفّها الله- تعالى .

وتحكمت الديلم عليه ، وسددت سهام النكائد إليه ، فضمّن القضاء لابن أبى الشوارب [2] بمائة وعشرين ألف دينار فى كل سنة.

ثم فلج فخلع نفسه عن الأمر طائعاً غير مكره، لأبنه الطائع لله أبى بكر عبدالكريم ابن الفضل بن المقتدر.

وتوفى بدير العاقول مع ابنه وسبكتكين التركى فى محاربة عز الدولة بختيار[3] وكانت وفاته يوم الاثنين لثمان بقين من المحرم سنة أربع وستين وثلثمائة. وعمره ثلاث وستون سنة وحمل إلى بغداد فدفن فى تربة المقتدر بالله.

---

(١) فى تأريخ ابن أبى عذيبة بحث موسع عن القرامطة ج٣ ص ١١٥.

(٢) ابن أبى الشوارب هو أبو الحسن محمد بن الحسن بن عبدالله بن أبى الشوارب وترجمته فى تأريخ الخطيب ج٢ص ٣٨٩،وأسرته معروفة بالعلم منها محمد بن عبدالملك جد عبد الله بن على بن محمد المذكور فى الخطيب ج ٢ص ٣٤٤ ومنهم على بن محمد ، ورد فى المنتظم ج ٥ ص ١٦٤ ومنهم الحسن بن محمد بن عبدالملك المذكور جاء فى الخطيب ج ٧ص ٤١٠.

(٣) وترجمة عز الدولة بختيار البويهى فى ابن خلكان ج ١ص ١٢٢

فصارت له الخلافة يوم الأربعاء

الثالث عشر من ذى القعدة ، سنة ثلاث وستين وثلثمائة ،وتوفى هو بعد خلعه نفسه بشهرين وأيام(١)

وأقام ولده الطائع(٢) خليفة

سبع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام. وفى أيامه خرج المصريون(٣)، ولم ينفذ العساكر إليهم، لشغله بالديلم فملكوا البلاد والشام إلى زمن المستنصر من المصريين. ففى أيامه استرجعت البلاد وعاد الشام مع الحرمين المعظمين إلى الخلافة العباسية.

واستوزر الطائع لله العجم . منهم أبو الحسن على بن محمد بن جعفر الأصبهانىّ، وعيسى بن مروان النصرانىّ، فاستخفا بالشريعة، ومالا إلى النجامة والقول بالطبيعة.

فخلع ورمى من السرير، جذبه بهاء الدولة الديلمى(٤)، وقدمد يده إليه ليسلم إليه قصة. وذلك فى داره بموضع المدرسة النظامية.

ونهبت الديلم دار الخلافة. وكان خلعه فى سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ، لإحدى عشرة ليلة بقيت من شعبان. وأقام معتقلاً فقيراً ذليلاً إلى أن توفى ليلة عيد الفطر، سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وصلى عليه القادر بالله وكبر خمساً وتحدث الناس فى تكبيره الخمس، فقال: هكذا يصلى على الخلفاء. وقد ذكرنا فى أول هذا الكتاب أن الإمام عبد الله بن عباس صلى عليه الإمام محمد بن الحنفية، وكبر أربعا وهو مذهب جميع أهل السنة، وإن كان فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كبر خمسا ، وقد ذكرنا ذلك كله.

---

(١) جاءت ترجمته فى تأريخ الخطيب ج ١٢ ص ٣٧٩ وابن الأثير ج ٨ ص ١٦١ وما بعدها إلى ص ٢٢٩.

(٢) انظر: الكامل ٨/ ١٤٨ ـ ٢١٠، فوات الوفيات ٢/ ١٢٥، تاريخ الخميس ٢/ ٣٥٣، مروج الذهب ٢/ ٤٢٩.

(٣) الظاهر (الفاطميون)، وسماهم المؤلف (بنى القداح) ويعرفون بالعبيديين.

(٤) بهاء الدولة: هو جاشاد بن عضد الدولة ملك بعد أخيه شرف الدولة. وترجمته فى تأريخ ابن أبى عذيبة ج ٣ ص ٣٤٦.

وبلغ الطائع لله من العمر سبعاً وسبعين سنة .ورثاه الشريف الرضى [1] بقصيدة أولها:

ما مثل يومك مايسلو به السالى ومثل يومك لم يخطر على بالى

وسنّه يوم ولّى ثمان وأربعون سنة [2] ولم يل الخلافة أكبر سنّاً منه، ولا ولى الخلافة من أبوه حيّ غير أبى بكر الصديق- رضى الله عنه - والطائع لله كلاهما يكنى أبا بكر. ومات بعده سبكتكين [3] بليلة.

ولما ملك عضد الدولة بن بويه [4] بغداد، وهزم الأتراك عنها ،أصعد الطائع معهم إلى تكريت ، فلم يخطب ببغداد مدة شهرين الخليفة حتى توسط قاضى القضاة ابن معروف بينه وبين عضد الدولة ، ففوض إليه الطائع المملكة، وحمل إليه ابن بويه أموالاً كثيرة .

وكان الطائع لله أكرم أهل زمانه.

وصورته مع النجار قد سارت بها الركبان وتحدث بها الرجال والنسوان. وذلك أن الطائع لله كان فى داره أيّل عظيم يقتل بقرنيه الدواب والبغال، ولا يتمكن أحد من مقاربته ، فاجتاز الطائع لله يوماً فى بعض البساتين ، فرآه وقد شق رواية، فقال للخدم: أمسكوه .فسعوا وراءه حتى ألجأوه إلى مضيق ، وبادر الطائع لله فأمسك قرنيه بيده، فلم يمكنه أن يخلصهما من الطائع ، لقوة عظيمة ركّبها الله فيه.

---

(١) الشريف الرضى معروف وله ديوانه والمجازات النبوية، وتأريخ رأيته فى إستانبول. وترجمته فى ابن خلكان وفى يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٩٧ وفى روضات الجنات ص ٥٧٣. وتوفى سنة ٤٠٦هـ.

(٢) حياة الطائع مذكورة فى تأريخ الخطيب ج ١١ ص ٧٩.

(٣) وفى (كتاب اليمينى) تفصيل حياته. وفى سيرة آل سبكتكين لأبى نصر محمد بن عبد الجبار العتبى. وفى وفيات الأعيان تعرض لذكره فى ج ٢ ص ١٢٣ عند الكلام على محمود ابن سبكتكين. وفى تأريخ وفاته هنا ما يخالف ابن خلكان وابن الأثير فى الكامل ج ٩ ص ٤٨.

(٤) وعضد الدولة مذكور فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٩٣ والمنتظم ج ٧ص ١١٣ وابن الأثير ج ٩ ص ٨ وذيل تجارب الأمم لأبى شجاع ص ٧٥.

واستدعى أحد النجارين ، فأحضر بين يديه ، فقال له: ركّب المنشار عليهما. ففعل، فلما بقيتا على يسير قطعهما الطائع بيده وهرب الأيّل على وجهه، وسقطت فرجيّة الطائع لله عن كتفيه، ونهض إلى قصره، وتطأطأ أحد الخدم ليأخذ الفرجيّة ، فنظر إليه بمؤخرة عينه منكر الفعلة ، فتركها موضعها، وبقيت الفرجية إلى آخر النهار، ولايجسر أحد على تحريكها من موضعها . فلما أراد النجار أن ينصرف قال له أحد الخدام:خذ الفرجية.وكانت من الوشى القديم، فباعها بمائة وسبعين ديناراً.

obeikandl.com

ثم صارت الخلافة بعد خلعه

إلى الخليفة الإمام الزاهد العابد، القادر بالله أبى العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر(١).

وكان قدهرب من الطائع إلى البطيحة .ولما وصل إلى بغداد وبويع له ، سلم إليه الطائع، فأكرمه وأحسن إليه ، وجعل أولاده تخدمه، وقضى جميع حوائجه إلى أن توفى الطائع مكرماً يوم الثلاثاء من بنى العباس ، حكم وأسجل على نفسه، وأشهد الشهود وكان يجلس فى كل يوم اثنين وخميس للناس.

وكان رأى فى الليلة التى وصلت إليه البشارة فى صبيحتها أمير المؤمنين أبا الحسن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وهو منام طويل، يقول:إن هذا الأمر صائر إليك فأحسن إلى ولدى. فانتبه، وذكر المنام لمن حضره، فاتت البيعة عقيبه، ومعها كتاب من الطائع لله يخلع نفسه .فصدقت رؤياه ، وبلّغه الله ماتمناه.

وصحب العلماء، ورفض الدنيا، ولم ينازع فيها ، ولم يدخر ديناراً ولادرهماً، ولم يردّسائلاً، وأكرم الحديث وأهله ومنحهم عطاءه وبذله.

وظهرت العرب، وقام الإسلام، وملكت الجزيرة والشام ،وبيعت مصنفات الحديث بأغلى (٢) الأثمان، ملأ الدنيا بالعدل والأمان.

وكانت الديالمة قد عظم أمرها وتفاقم ، وكبر قدرها وتعاظم .وذلك بإسناد الباطنية إليهم، وإفساد الأعتقادات عليهم .لأنهم أدخلوهم فى تلك الاعتقادات الفاسدة ، استمالوهم بزخارفهم المائلة عن ملّة الإسلام والحائدة. واستعملواهم تلك الاستدراجات التى تعطل الشرائع ، وتفتح أبواب الذرائع. وتبعهم على ذلك المنجمون القائلون بتأثيرات الأفلاك، والزنادقة والرافضة المعطلة من الدين كل ملاك، وعظمت شوكتهم وكبرت واتسعت دائرتهم وانتشرت، واجتمع فهم ما يزيد على الإحصاء عدداً وما يملأ القلوب والأسماع عدداً.

---

(١) انظر: تاريخ بغداد ٩/ ٢٨ و ١٤٣، تاريخ الخميس ٢/ ٣٥٥، تاريخ بغداد ٤/ ٣٧.

(٢) وردت بأغلاء الأثمان بالألف الممدودة.

وخشى على موضع الخلافة والمسلمين ، ودخول الطمع على أولياء الدين، حتى خرج إليهم يمين الدولة السلطان أبو القاسم محمود بن سبكتكين، فأمكنه الله من رقابهم واستولى على مدنهم وجبالهم وشعابهم، وسلط السيف عليهم ومكنه، وهدأ الله به ذلك الأمر وسكّنه.

فصلب من الباطنية والرافضة الزنادقة والمعتزلة الأعيان، وتحدق إلى مراكز مصارعهم فى بلد الريّ العيان.

وأحرقت الكتب التى بباطلهم ألفوها، والمجموعات التى بكفرهم صنفوها، فكان لها تحت خشب المصلبين تأجّج والتهاب ،وذلك مما أعان أولياء دينه عليه العزيز الوهاب .

وإنما جرى الأمر فى إحراق الكتب المفسدة للدين ،على ماكان جرى عليه فى زمان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

فقد أحرقوا بالأسكندرية ، عندما فتحوا الديار المصرية ، جملة زائدة على العدد والحصر، فبقيت تحرق فى الأفران برهة من الدهر، وذلك ستة أشهر تجدد فى كل شهر .

وفى أيامه فتحت السند والهند وصح وعد رسول لله- ﷺ- بالفتح لأمته من قبل ومن بعد. فخرج يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين بأمر الخليفة أمير المؤمنين من غزنة يوم السبت الثالث عشر من جمادى الأولى سنة تسع وأربعمائة ،لقتال الهنود، بقلب منشرح لطلب السعادة، مشتاق إلى درك الشهادة، ففتح مدناً كثيرة، وقلاعاً شهيرة، هى أمنع من الأبلق الفرد ، وسلك إليها غياضاً لايسكنها سوى الكركدنّ والقرد.

ومن جملتها مدينة مهورة التى تزعم الهنود أن الجن كانت رفعت قواعد بنيانها، وبنت بيوت أصنامها وأوثانها، وكانت تشتمل على زهاء ألف قصر من القصور الشاهقات ، ذوات الأسوار المرتفعة المانعات، المبنية بالرصاص المذاب بين ضبات الحديد التى تبقى على الدهر وبرد بقائها فى وصف جديد.

وكان فيها ألف بيت للأصنام ذوات الصور العجيبة ، والأفعال الغريبة، المصوغة من الفضة والذهب، والمصنوعة من كرائم الخشب، مما يخرج عما يدخل فى الرسم، وأصبح كسر جميعها عبرة لذوى الفهم ، وما امتنع منها على المعاول أوقد عليه النيران، وهدم منه الأركان ، وصيره فى الذاهبين فى خبر كان ، بعد قتل أتى على ملوكهم وعظمائهم، وقهر سكّن ثائرة دهمائهم. وعاد إلى غزنة راجعاً ومعه من الغنائم والأموال مالايحصى ، ومن اليواقيت والجواهر أعداد الحصى.

وكان قد حاصر بندا ملك الهند فى قلعته المسماة بكالنجر، وتدعى لها الهنود الشأن الأكبر، وأن بانيها أول من ركب الفيل و ذلّله واستعمله، وتولّى تسخيره وقهره لمن يعمل من سائر الملوك بعد عمله ، وليس فى الأرض لهانظير فى سعة الرقعة ، وعظم الرفعة ، وخصب البقعة .

وما الظن بقلعة تسع خمسمائة ألف إنسان وخمسمائة فيل وعشرين ألف دابة مع ما يلحق ذلك من الأقوات والعُدد ، وكثرة العدد ،والمياه المطردة العيون والأنهار، الجاعلة الليل بصفائها كالنهار.

فدعت الحال إلى مهادنة الملك بعد قهره ، ودخول عظماء دولته فى يد سلطان المسلمين وقسره ، وكان من رسوم المهادنات فى الاستيثاق ، الأخذ فى الموادعات بالميثاق ، أن يقطع المقهور رأس إصبعه، فيكون مع القاهر فخراً فى موضعه .

ولهذا كان معه من رءوس أصابع الملوك الذين أبقى عليهم شىء كثير. وكانت المهادنة على أداء الخراج فى كل سنة، ومعاونة الغزاة إذا ألموا بناحية ذلك الملك على غيره من ملوك الهند. فدفع المال الجزيل، وسلم خمسمائة فيل، ومنها خمسة وأربعون يعدل الواحد منها بمائة والباقى كلها منتخب مختار، إذ لايقتنى بتلك البقعة إلا الخيار،وقويل بخلع سنيّة، وترك على ولاية بلاده الشربة. وأضيف إليه من البلاد التى تليه ولايات، وقامت بها من جهة سلطان المسلمين ممالك ورايات.

ـ ولما علم (كابكى) أحد ملوك تلك الأصقاع ، وصاحب ألف فيل معروف بالنجدة فى تلك البقاع، أنه قدفعل ببندا ما فعل من المحاربة والمخاشنة، ثم عومل بعد

ذلك بما عومل من المهادنة، وأوثر بالموادعة بعد القدرة عليه والمحاسنة، بعث مهاداً ومهادياً وكانت منه هدايا كثيرة وفيلة خطيرة.

وكان فيما أنفذه من الفيلة ذات جنين مثقل ، وذات رضيع معمل ، ومن الطرف الغريبة طائر على هيئة القمرىّ جلبابه أدكن ، وعينه ومنقاره أحمران، وجناحاه مخططان، بخطوط سود كأنما يرفل فى حبره، أو ينظر من شرره، ومن خاصيته العجيبة أنه إذا أحضر على رأس الخوان، وحمل بمرآه مايحمل من الألوان وكان فى واحد منها سم دمعت عيناه ، وجرى منهما ماء تراه، وحجر عجيب فيطلى بما يخرج منه على الجراحات الصادعة ، ذات الأفواه الواسعة، الصعبة الاندمال ، المشكلة الأحوال ، فيلحمها ويدملها، ويبرئها ويكملها، وإن كان فى البدن نصل يعسر علاجه، قوبل به فيجذبه إليه حتى يمكن إخراجه .

فقبل السلطان محمود هديته، وأجاب فى الموادعة طلبته، وعاد المسلمون بهذا الفتح العميم ، والفضل الجسيم ، كما قال الله ـ تعالى ـ فى كتابه الكريم: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان اللهواللهُ ذو فضل عظيم﴾(١).

ثم خرج صبيحة يوم الأربعاء لثمانى ليال بقين من شعبان سنة ست عشرة وأربعمائة فى جمع يضاهى النجوم عدداً. ويشاكلها فى الامتناع عدداً، لهدم (سوماتى) (٢) هوالضم الذى يقضى هدمه للكفر بالممات لأنه كان عندهم أعظم الأصنام والأوثان.

وهو عندهم يحيى ويميت، ويوجد ويفيت ، ويبدىء ويعيد، ويفعل مايشاء ويحكم مايريد، وأنه إذا شاء أبرأ من العلل ، حتى البرص والعمى والصمم والشلل.

وزعموا أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت لديه فأنشأها فيمن شاء قبل الولادة، وهذا على مذهبهم فى التناسخ القاضى عليهم بالجهالة والبلادة.

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٤

(٢) فى ابن الاثير ورد بلفظ(سومنات)كما فى ج ٩ص ١٢٧ .وهناك تفصيل. وجاء فى وفيات الأعيان أنه (سومنان) ذكره فى ترجمة محمود بن سبكتكين ج٢ص ١٢٥وفى هذا البحث وفى أواخره ورد بلفظ(سوماه).وفى كتاب البيرونى فى تحقيق ماللهندمن مقولة جاءبتاء طويلة .ولعلة الصواب وما فى ابن خلكان يظهران أصله (سوماة) بالتاء المدورة

وزعموا أن ظهور مد البحر المتصل بقلعته وجزره،عبادة من البحر للصنم على قدر طاقته وقدره. وكانوا يحجون إليه من كل مكان سحيق، وفج عميق، ويتحفونه بالأموال، ويمدونه بالسدنة والرجال ، ويقّربون له القرابين ، ويقيمون عبادته على القوانين ، ويصفونه بعظيم الأوصاف ، ويقفون عليه وعلى سدنته الأزراق فى الأوقاف، حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية مشهورة فى بقاعهم، معروفة الخطب والخير فى أصقاعهم.

وكان كل ملك من ملوكهم يقيم عنه نائباً فى ملازمة عبادته، والقيام بخدمته ريثما يصل بنفسه ليقيم فرض حجته، وكانت الهند تعارض به وبيته، كعبة الله وشريف بيته.

فكان سعيهم فى طاعته غروراً، واعتقادهم فى استطاعته كان هباءً منثوراً.

فلما وصل إلى القلعة التى كان هذا الصنم فيها بعد قطع غياض تقطع ظهورسالكيها لاتجد الحية فيها فيها مدّباه ولا الريح بين مضائقها مهباً، ومقاساة أهوال بشيب لها الوليد، ويعيا بها الجليد، وخوض بحار لم تجر عادة بخوض مثلها، وسلوك قفار تحير الأدلة من أجلها.

فأعان الله المسلمين عليها، وجعل رقاب ملّة الكفر تحت قهر ملّة الإسلام وفى يديها وكان هذا الصنم فى صدر القلعة على جانب البحر، وكان أساس البيت الذى هو فيه مرضوماً بالقطع العظيمة من كبار الصخر، وسمكه مرفوعاً على ست وخمسين سارية من الساج المجلوب من جزائر الزنج إلى تلك الأرض، وكان سماء البيت ثلاثة عشر سقفاً مركباً بعضها على بعض حتى علا إلى السماء بنيانه، وارتفعت على الأبنية كلها أركانه ، وكان سطحه منضوداً من قراميد الساج المغشى بصفائح الرصاص المخبور، لتأمن حوادث الأمطار على مد الدهور.وكان أعلى البيت متوجاً بأربع عشرة رمانة من الذهب تلوح على بُعد كالشموس، ويعظم موقع لمعانها فى القلوب والنفوس ، وكان مقام الصنم محفوفاً بالأصنام المصوغة من الذهب والفضة تحت سقفه المرفوع إشارة إلى إنهاء الملائكة حول عرشه الموضوع، وكان له غشاء مصوغ من العقيان، فيه تماثيل أجناس الحيوان، وتاج مرصع باليواقيت الثمينة الرائعة الألوان.

ذكر ذلك كله هلال بن المحسن الصابىء [1] فى تأريخه الكبير فدخلها السلطان محمود قهراً وقسراً، وعم أهلها البلاء قتلاً وأسراً، وأحاط بهم براً وبحراً، وكانت الهنود تزعم أن هذا الصنم هو الذى شاء للأصنام الماضية حتى وقع بها الانهدام ولو شاء لمنعها فكانت أبداً مما لايرام.

وكانوا لايجوزون أن تتطرق إلى هدم هذا الصنم الأوهام، فحين نقض بالمعاول عرشه المنضد، وزعزع بالفؤوس أصله الممهد، وخرّ صريعاً مهيناً، وكان الإسلام للكفر مهيناً، سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، فأسلم بعضهم وبعضهم تسلّلوا إلى الهرب وانسلّوا. وكان الصنم قد امتنع على الكسر لصلابته، وكانوا يقولون: إنه طلع من الأرض بإرادته. فأوقدت عليه النار حتى قطعته أفلاذاً، وصيرته جذاذا (أى فتاتاً)، وحمل أعلاه مع غلافه المصوغ من الذهب، ليزول أمر الشكوك فى بطلانه والريب، بأن ينصب فى سائر البلاد للعيون مثالاً، ويصبح لعلامة قطع دابر الكفر تمثالاً، وأضرمت النار فى القلعة حين خلت من سومناة وعبّادها، وشاهد المسلمون باشتعال النار فى جدرانها واشتمالها على خمسين ألف قتيل من سكانها قيامة، وصارت بيد الحمام فى سواد غراب بعد ماكانت فى بياض حمامه، وتلاحينئذ أولئك المجاهدون: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [2].

---

(١) هلال هذا حفيد أبى إسحاق الصابىء صاحب كتاب (التاجى) فى الدولة البويهية، والمؤلف نسب إليه (التأريخ الكبير) وهوالصواب وفى ابن خلكان ج ٢ ص ٢٩٩ لم يذكر لهلال من المؤلفات االكتاب (الأمائل والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان).

واما التاريخ الكبير فعزاه إلى ابنه غرس النعمة أبى الحسن محمد بن هلال وليس بصحيح.

وتوفى هلال فى ١٧ من شهر رمضان سنة ٤٤٨ هـ .وهو صاحب تحفة الوزراء والتأريخ الكبير المذكور (إرشاد الأريب ٧ ص ٢٥٥).

(٢) سورة الأنبياء الآية ٩٨.

بويع القادر باللّه (١)

يوم الأحد الثامن عشر من شعبان سنة إحدى وثمانين وثلثمائة (٩٩١م)، وأقام خليفة إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر .قاله الخطيب فى تأريخه .

وقال غيره : أقام خليفة ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً وتوفى ـ رحمه الله ـ حادى عشر ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١م) وقيل : سنة ثلاث. وهوابن ثلاث وتسعين سنة. وقيل : ابن ست وثمانين سنة وأشهر، ولم يبلغ أحد من الخلفاء قبله مدة ولايته ولاطول عمره.

وكان بالضد له فى بأمر الحاكم بأمر الله أبوعلى المنصور بن العزيز بالله نزاربن المعز معد بن المنصور إسماعيل بمصر يركب الحمار ويطوف فى الأسواق ويضرب فيها الرقاب ، ويتنجم ويتكهن وأمر ألا تمشى امرأة بليل ولانهار بمصر وغلق عليهن الحمامات حتى متن ،وقطع الكروم ، وأنكر العلوم، وكانت أيامه متضادة الأحكام قليلة الأحكام ،كثيرة السطوة والانتقام على علماء الإسلام.

قتل من العلماء والوزراء، والكتاب والفضلاء، جماعة من الأعلام.وإذا جاد بمال ندم عليه، وتحيّل على قتل صاحبه حتى يرجع ماله إليه. لبس الصوف سبع سنين وامتنع من دخول الحمام وبقى ثلاث سنين يجلس فى ضوء الشمع ليلاً ونهاراً، يعبد القاهر وهو المريخ سراً وجهاراً، فلما لم يحل من عبادته بالطائل، ورأى عبادته من الرأى القائل، رجع إلى عبادة زحل فلم يجلس إلا فى الظلمة. ولبس السواد، وتسربل الحداد، واختار ركوب الحمار، فكان أثره من أقبح الآثار، ولم يجد من دون الله من اولياء ولا أنصار، ولم يراقب ما فى كتاب الله العزيز من إيعاد وإنذار، وأمن من جريان الأقدار وفوادح الأخطار، فقتله الله ـ جلّ وعلا ـ وصار إلى سواء النار، وذلك لليلتين بقيتا من شوال سنة إحدى وأربعمائة (١٠١١م) مع السياف والركابى والحمار، وولايته خمس وعشرون سنة وعمره سبع وثلاثون سنة.

---

(١) انظر: تاريخ بغداد ٩/ ٢٨، تاريخ الخميس ٢/ ٣٥٥، تاريخ بغداد ٤/ ٣٧

ثم صارت الخلافة إلى ابنه القائم(١)

أبى جعفر عبد الله بن أحمد القادر بويع بالخلافة يوم الاثنين الواحد والعشرين من ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١م) . وقد تقدم الخلاف فى موت أبيه. وكان ولى عهد أبيه من بعده . وهو لقبه بالقائم بأمر الله وخطب له بذلك فى حياته .

وكان مولده يوم الجمعة الثامن والعشرين من ذى القعدة سنة إحدى وتسعين وثلثمائة.

فأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وأحسن إلى الرعية، وعدل فيهم وجلس للناس بنفسه وجعل المحدثين والعلماء يرفعون إليه قصص الناس. فصلحت الحال، وقطعت خطبة المصريين بحران وأقيمت للقائم بأمر الله.

وفى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أسلم من كفار الترك ثلاثون ألف خركاة وضحوا بثلاثين ألف رأس من الغنم.

وفى أيامه اقتتل الشيعة وأهل السنة حتى أراد بعض من لا يتقى الله - عز وجل - ولا يراقب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- نبش قبر الإمامين : موسى الكاظم ومحمد الجواد ، بعد إحراق القبة بالنار، وعزم على نقل رمتهما إلى قبر أحمد بن حنبل إلى أن صرفه الله عن ذلك بما نزل من غلاء السعر ببغداد لأنه بلغ كر الحنطة مائة وتسعين ديناراً.

وكان الخليفة قد قلد الأمور إلى أرسلان البساسيرى وقدمه على جميع الأتراك، فانتشر ذكره وطار اسمه ، وتهيبته أمراء العرب والعجم، ودعى له على منابر العراق والأهواز من بلاد خوزستان، وخرّب الضياع وجبى الأموال ، فكان جزاء الخليفة منه أنه عزم على نهب داره ، وهتك أستاره ، والعرب تقول «سمّن كلبك يأكلك».

فكتب الخليفة إلى السلطان أبى طالب محمد طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق ابن دقاق التركمانى. وهو أول من دخل من السلجوقية بغداد وليس له عقب فوصل إلى بغداد فى رمضان سنة سبع وأربعين وأربعمائة (١٠٥٥م)، وحرقت دار البساسيرى.

(١) انظر: تاريخ الخميس ٢/ ٣٥٧، تاريخ بغداد ٩/ ٣٩٩، فوات الوفيات ١/ ٢٠٣.

وهرب البساسيرى إلى الرحبة ومعه خلق كثير من الأتراك والبغداديين، وكاتب صاحب مصر وذكر أنه فى طاعته وعلى إقامة الدعوة له بالعراق فأمده بالأموال وولاه الرحبة إلى أن خالف على السلطان طغرل بك أخوه إبراهيم بمخاطبة البساسيرى له بالعصيان لأخيه وأطمعه بالانفراد بالملك. فسار السلطان فى أثر أخيه وفارق بغداد. فاضطرب أمرها الى أن دخل البساسيرى بغداد ثامن ذى الحجة ومعه الرايات المصرية وضرب مضاربه على شاطئ دجلة ومعه العسكر العظيم.

واجتمع أهل الكرخ وعامة الجانب الغربى على معاضدته، وأطمعهم فى نهب دار الخليفة، والناس إذ ذاك فى ضرّ شديد، قد توالت عليهم سنون مجدبة، والأقوات متعذرة والأسعار غالية، وجرى القتال بين الفريقين وفى السفن بدجلة.

فلما كان يوم الجمعة الثالث عشر من ذى القعدة دعى لصاحب مصر فى الخطبة فى جامع المنصور وزيد فى الأذان« حىّ على خير العمل» وشرع البساسيرى فى إصلاح الجسر فعقده بباب الطاق وعبر مع عسكره وأنزله بالزاهر فحضرت الجمعة فدعى لصاحب مصر فى جامع الرصافة كما دعى له بجامع المنصور.

فخندق الخليفة خلف داره وأصلح ما وهى من السور المحيط بها، فلما كان يوم الأحد لليلتين بقيتا من ذى الحجة حشر البساسيرى أهل الجانب الغربى عموماً وأهل الكرخ خصوصاً ونهض بهم إلى حرب الخليفة.

وخرج إليه العسكر وكان سبعة آلاف مقاتل، منهم ثمانمائة فارس ومعهم من العامة مالا يحصى. فاستجرّهم البساسيرى إلى الصحراء وأظهر الانهزام وتبعه الناس وهو منهزم، ثم عطف عليهم فقتل أكثرهم وتقدم إلى دار الخليفة بعد أن أضرم النار فى الأسواق بنهر معلّى.

ووجه الخليفة إلى قريش بن بدران العقيلى (منسوب إلى عقيل بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان) الذى أقبل مع البساسيرى فبذل له ذمامه.

فخرج الخليفة من الدار راكباً وبين يديه راية سوداء وعليه قباء أسود وسيف ومنطقة وعلى رأسه عمامة تحتها قلنسوة والأتراك فى أعراضه وبين يديه وضرب

قريش للخليفة خيمة إزاء بيته بالجانب الشرقى فدخلها وأحدق بها خدمة ونهبت دار الخليفة وأخذ منها مالايحصى كثرة ، وبعث منها إلى مصر إلى القاهرة المعزية منديله الذى عممه بيده قد جعل فى قالب رخام لكى لا ينحل مع ردائه والشباك الذى كان يتوكأ عليه. وهو الآن بدار الوزارة بالقاهرة.

وأما العمامة والرداء فبعثهما للخليفة الإمام المستضىء بأمر الله، أمير المؤمنين السلطان الناصر لدين الله ، المجاهد فى سبيل الله ، صلاح الدنيا والدين، ذخرهما الله له فى علّيين، مع الكتاب الذى كتبه على نفسه وأشهد عليه العدول فيه أنه لا حق لهم فى الخلافة مع وجود بنى فاطمة الزهراء.

وقيد الوزير أبو القاسم بن المسلمة رئيس الرؤساء وقاضى القضاة أبو عبد الله الدامغانى وانقطعت دولة بنى العباس من بغداد.

وأخرج الخليفة وحمل إلى الأنبار، وحبس بالحديثة عند صاحبها أبى الحارث مهارش بن مجلّى العقيلى فتولى خدمة الخليفة بنفسه، وكان أحد وجوه بنى عقيل.

وأمر البساسيرى برئيس الرؤساء فأركبه على جمل وفى رجليه قيد وعليه جبة صوف وعلى رأسه طرطور لبد أحمر وشهر فى البلد وناله من العامة مهانة عظيمة.

ثم أعيد إلى باب خراسان وترك فى جلد ثور سلخ فى وقته، وعلّق فى فكّه كلابان من حديد وعلق على خشبة حياً. ولبث إلى آخر نهاره يضطرب . ومات وبقى شلوه منصوباً عدة أشهر اختلف علينا فى تحقيقها.

ثم أمرالبساسيرى بإلقاء جثته إلى دجلة وقال : إن تركته أخذه أهله وبنوا عليه مشهداً وزاره الناس . وصلب جماعة، وأطلق القاضى على مال بذله له.

وانحدر إلى البصرة ففتحها.

وسار الخليفة معه مهارش المذكور، لما وصل السلطان طغرل بك إلى بغداد وخالفه الخليفة الطريق، فعاد إلى النهروان فنفّذ طغرل بك إلى الخليفة المهد والسرادق مع عميد الملك أبى نصر(١).

(١) هو محمد الكندرى وترجمته فى دولة آل سلجوق ص ٩ و ٢٨ وفى راحة الصدور ص ٩٨، وفى فوات الوفيات ج ٢ ص٤٨٨ ـ ٤٩٢، وفى ابن خلكان ج ٢ص ١٠٣ تفضيل الأتراك على سائر الأجناد ص ٤٥، وفى تأريخ ابن أبي عذيبة ج ٤ص ٦٢.

وخرج السلطان بنفسه إلى النهروان. ودخل إلى الخليفة بها، وقبّل الأرض بين يديه سبع مرات، وهنأه بالسلامة، واعتذر إليه من تأخره بعصيان أخيه إبراهيم، وأنه قتله لأنه كان السبب فى تأخره ، وشكره الخليفة على أقواله ووصل الخليفة داره يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذى القعدة [1] . فأقام فى وجهته الكريهة مدة من تسعة أشهر فيما صح، والسلطان آخذ بلجام بغلته يمشى بين يديه الى باب حجرته.

ثم نفذ السلطان طغرل بك بربيبه ابن خوازم شاه، وهو أنوشروان، فى جيش ومعهم سرايا بن منيع من خفاجة فنهبوا الكوفة وهجموا على البساسيرى وأصاب فرسه سهم ووقع فى وجهه ضربة فخزوا رأسه وحمل إلى بغداد فصلب قبالة باب النوبى ، وكانت العاقبة للمتقين، والحمد لله رب العالمين.

وتزوج أبو طالب طغرل بك بابنة الخليفة القائم بأمر الله ونقلها إلى مدينة الرىّ ولم يسبق أحد من الملوك قبله إلى ذلك، وكان ملك العراقين وخراسان والجبال ثلاثين سنة وبه زالت دولة بنى بويه من بغداد .

وكان الملك طغرل بك هذا أشد الناس احتمالاً وأكتمهم سراً، وكان يحافظ على الصلوات ويصوم يوم الاثنين والخميس ولا يلبس الحرير، ومات بالرىّ فى ثامن شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة وله سبعون سنة.

وكان رأى فى المنام كأن قائلاً يقول له : أنت بمكة وأنت بقرب البارى - عز وجلّ - فسل حاجتك . قال : فقلت : أسأل طول العمر. فقيل : سبعون سنة. فلما أستكملها مات رحمه الله.

وخطب لبنى عبيد ببغداد أربعين جمعة، وذلك للمستنصر ، بل للبطال المستهتر ، أنشده العقيلى صبيحة يوم عرفة:

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء ... و لا تضحّ ضحى إلا بصهباء
وأدرك حجيج الندامى قبل نفرهم ... إلى منى قصفهم مع كل هيفاء

(١) وكان ذلك فى سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م.

وصل ألف القطع للضرورة وهو جائز.

فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاهى وتساق، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق ، فأقام بها سوق الفسوق على ساق وشتان بين من يعمل بطاعة الله ، ويقصد حج بيته من أقصى الآفاق، وبين من يستحل الخمر ويشربها بكؤوس دهاق، ويؤمن بالهية محمد بن إسماعيل ويكفر بالخلاق، وفى ذلك العام أخذه الله وأهل مصر بالسنين حتى بيع القرص فى أيامه بالثمن الثمين، وعاد ماء النيل بعد غدويته كالغسلين (١) ، ولم يبق بشاطئيه أحد بعد أن كانا محفوفين بحور عين، وخربت قطائع الأمير ابن طولون وهلك جميع من كان بها من الساكنين، وكانت نيّفاً على مائة ألف دار نزهة للناظرين ، محدقة بالجنات والبساتين، ودام هذا البلاء الجارف مدة خمس سنين، وجالت فى ذخائره أيدى الملحية المفسدين، فأصبح بعد ما كان مستنصراً بالله مستنصراً ببدر مملوك جمال الدين، وكان له شرّ مؤازر وقرين، وجعله محجوراً عليه حتى فى لحيته بعد ما بلغ عقدة السبعين ، واستولى على ملكه استيلاء القاهرين، وأزاله الله عن مستقر العزّ والتمكين، وذلك جزاء الظالمين.

ولما رجع الخليفة إلى داره لم يتجرد فى فراش من ثيابه ولم ينم على غير مصلاه الذى يصلى فيه، وكان يكثر الصيام، وسببه أنه سمع الخطيب يوم الجمعة يقول : اللهم أصلح عبدك وخليفتك الإمام الصوّام القوّام، فقال مجيبا له: والله لا كذّبتك فكان يصوم النهار ويقوم الليل ولا يمسك من المال سوى قوته خاصة وقوت عياله. وكان قد اعتزلهن وترك أكل اللحم لئلا يحرّك عليه شهوة تدعوه إليهن، ويفرق الأموال فى جميع الناس وخصوصاً أهل العفاف والستر، وعفا عن كل من آذاه بيد أو لسان، وأفرد بيتاً للعبادة وتوفى ، على خير حالاته ليلة الخميس الثالث عشر من شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة (١٠٧٥م).

وقد استوطن أمير المسلمين ، وناصر الدين، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين، الصنهاجىّ اللمتونى مراكش لأنه عمرها سنة خمس وستين وأربعمائة وكانت مزرعة لأهل نفيس فاشتراها منهم خاله الذى خرج به من الصحراء.

(١) كل جرح غسلته فخرج منه شىء هو غسلين، فعلين من الغسل من الجراح والدبر وقال ابن عباس: غسلين صديد أهل النار.

وفى أيامه غرقت بغداد، وخرج الماء على الخليفة من تحت سريره، فنهض إلى الباب فلم يجد طريقاً، فحمله خادم على ظهره إلى التاج ولبس الخليفة بردة رسول الله - ﷺ- وأخذ القضيب المكرم بيده، ووقف بين يدى الله - تعالى - يصلى ويضرع، ولم يطعم يومه وليلته ففرج الله عنهم ببركة نبيهم وشفيعهم محمد - ﷺ - الصادق المصدوق ، صاحب البردة والقضيب الممشوق.

obeikandl.com

ثم صارت الخلافة الى ابنه المقتدى بأمر اللّه (١)

أبى القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين أبى القاسم محمد بن القائم بأمر الله أبى جعفر عبد الله، فلم يكن له من الأمر إلا الاسم لا يتعدى حكمه بابه ولا يتجاوز جنابه، وكان فى صورة الأمر وهو مأمور، وفى حلية المستولى على الأمر وهو مغلوب مقهور، وكانت له صرامة وشهامة ولم يكن له أعوان على ذلك تذبّ عنه، بل كانت له دعوة مجابة قد جربت منه.

وذلك أن السلطان جلال الدولة أبا الفتح ملك شاه بن عضد الدولة أبى شجاع السلجوقى وهو محمد بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وكان يخطب له من أقصى بلاد الترك إلى بلاد اليمن، راسله وقال : لابد أن تنزل على بغداد وتخرج إلى أى البلاد شئت. فراسله فى الجواب: أمهلنى عشرة أيام. فلما كان فى اليوم العاشر من هذه الرسالة مات جلال الدولة فى النصف من شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وعمره سبع وثلاثون سنة وخمسة أشهر.

ومدة مملكته تسع عشرة سنة وشهر. فسمته شمس النهار القهرمانة، فمات بعد ما تناول الطعام عشية يوم الجمعة الخامس عشر من المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة (١٠٩٤م)، فكتمت شمس النهار أمر موته ثلاثة أيام ثم ظهر يوم الثلاثاء العاشر من محرم، وفيها مات المستنصر صاحب مصر ، فكانت خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر إلا يومين وقيل: وخمسة أشهر، وعمره ثلاث وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام.

---

(١) انظر: الكامل ١٠/ ٨٠ ـ ١٨٨، تاريخ الخميس ٢/ ٣٦٠، مرآة الزمان ٨/ ٧٣

ثم صارت الخلافة الى ابنه المستظهر بالله (١)

أبى العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله أبى القاسم عبد الله . بويع له يوم الاثنين ثامن عشر محرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة (١٠٩٤م) وقد كان أبوه لقبه بذخيرة الدين وذكر له على المنابر بولاية العهد وعلى السكة.

وفى أيامه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة فى شعبان أخذ الفرنج بيت المقدس عنوة وقتل أهلها بالمسجد الأقصى زائداً على سبعين ألف نفس وهزم الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى بظاهر عسقلان أقبح هزيمة.

وكان الخليفة المستظهر بالله هيناً ليناً إلا أن حكمه لا يتعدى نفسه، وظلمه لا يفارق شمسه ، مع حسن معاشرته . لا يتغير على صحبه، قد حسن الله خلْقه وخلَقه وبرّه وأدبه ، فأقام خمساً وعشرين سنة وأشهراً، وقيل : أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً. مرض ثلاثة عشر يوماً وتوفى ليلة الأحد السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وخمسمائة (١١١٨م)، وله إحدى وأربعون سنة وستة أشهر وسبعة أيام.

---

(١) انظر: فوات الوفيات ٢/ ١٢٤، الكامل ١٠/ ١٨٩، تاريخ الخميس ٢/ ٣٦١، مفروج الكروب ١/ ٥٠ ـ ٦١

obeikandl.com

ثم صارت الخلافة بعده إلى ابنه المسترشد بالله (١)

أبى منصور الفضل بن أحمد. بويع له ببغداد يوم مات أبوه المستظهر قبل دفن أبيه المستظهر، فلما تمت البيعة أخرج تابوت أبيه، وصلى عليه ، وكبر أربع تكبيرات ودفن فى حجرته.

قال ذو النسبين - أيده الله - : وكان المسترشد بالله ذا نفس أبية وعزمة عربية قرشية هاشمية، يسمح بالأموال، ويخرج بنفسه للقتال، ويضرب بسيفه هام الرجال، وينظم الشعر ويجيد قرضه، ويعلم الشعراء واجب أدب الخلافة وفرضه، وقصته مع الحيص بيص مشهورة، وعند الرواة مدونة مذكورة.

وهو الأستاذ الأمير اللغوىّ شهاب الدين أبو الفوارس بن الصيفىّ التميمىّ الملقب بحيص بيص، وكان كلقبه يعطى لبذاءة لسانه لا لأدبه، له قدم فى الهجو مشهور، وعلم فى العنجهية منشور. له فى المقام الأمامى المسترشدى بالله (قدس الله ضريحه ومجدّ فى علّيين روحه):

منعت القرى إن لم أقدها عوابساً ... تثير عجاج المأزق المتضايق
خوارج من ليل الغبار كأنها ... رجوم لنجوم أو سهام مراشق
تجانف عن ورد الفلاة ظمئة ... فلا ورد إلا من دماء الفيالق

ويقول فيها:

دعوت تميما والرجال بعيدة ... وقد ضقت ذرعاً بالخطوب الطوارق
فقام بنصرى من قريش ممجّد ... شديد مضاء البأس سهل الخلائق

وكتب بما طالع به فقال:

إنها مطايا ألا احتملت حسن أنباء، غرّد بها حادى رجاء، والمنزل الغنى جوداً بأمير المؤمنين بوفر دثر، لا بكىّ ولا نزر، لفصيح شعر يمم لجّ بحر، برتاد غناء دهر،

(١) انظر: الكامل ١١/ ١١٠ ـ ٢٤، تواريخ آل سلجوق ١٧٨ ـ ١٨١، مرآة الزمان ٨/ ١٦٧.

فالقافية سحر، والسامع حبر، والندى غمر، والرأى المقدس إعلاء أن وراء الحجاب المسدل لا يهم طود، وخضم يمّ ، ومخرس خطب، وقاتل جدب ، عنّ فقهر ،وجلّ فبهر ، فصلوات الله عليه ما هبّت الريح ، ونسم الشيح، خامسة من الخدم، فى انتجاع شآبيب الكرم، بساحة القدس الأعظم، حلوان قافية، تجرى كناجية، بمخترق بادية، تهدى سفرا، وتسهل وعرا، وتنحو نداً غمراً، والمجد الأشرف أعلم بنجح أملها ، وأجد، يا أمير المؤمنين، مائة بيت نظماً وسبع رقاع نثراً، تذاد عن النجع ذياد العاطفات كلا فالأبوة نبوية، والأعراق عباسية، واليقظة لوذعيّة، وكفى بالمجد محاسباً:

ماذا أقول إذا الرواة ترنموا ... بفصيح شعرى فى الإمام العادل؟
وترنحت أعطافهم فكأنما ... فى كل قافية سلافة بابل
واستحسن الشعراء نظم قصيدة ... لأجلّ ممدوح وأفضل قائل
ثم انثنوا، غبّ النشيد وضمنه ... يتساءلون عن الندى والنائل
هبْ، يا أمير المؤمنين، بأننى ... قسّ البيان، فما جواب السائل؟

أصلح الله أمير المؤمنين إن الموصل واليغارين (الايغارين) كانتا جائزتين لشاعرين طائيين من إمامين مرضيين المعتصم بالله والمتوكل على الله ، والمجد الأشرف أعلم ، وخطره أجسم ، وعمامه للمعتفين أغرم، فعلام الحرمان؟

فأنا له خمسمائة دينار فردها. وقال:

لم أمدح آراء البنوّة وأتشعر بمشاعر الأبوة، وأكثر الإيجاس ، بتتيجة العباس، إلا بسبق الخاطر، لإدراك المظافر، إذ كان ذلك أعجوبا، محضاً مخطوباً ، مقصور الإنعام ببايعقوبا.

فأنا له مثل النائل الأول ، فردّه ، وقال:

لم أتطاول بنفس متطاولة، حتى عرضت على القوافى صائلة، ولو شئت حين قلت لم أدرك أعباء الجواب، وملاذ الخطاب، ولكن كان الذكر مرهوناً، والأمل معصوباً، مقصور الإنعام ببايعقوبا.

فيرز الجواب من أمير المؤمنين المسترشد بالله:

ومضى الجواب بها وبان العنطب ... وتدأدأت أرسابها والهيدب
ونطت فأنطت فاستنط مزارها ... وسرت فأدركها السهام المطنب
وتغورّت وتميأرت واستغورت ... وقع الدكادك واستبان الأخلب
ولربما جرت الأمور بيايق ... بانت فجيعتها وبان الخلّب
فالهجن والطمع المتيه بأهله ... رزء بها نضناضها يتضبضب
رد النوال من الميلقة فاتئد ... يا ابن الزنيم وكن بها تتأدب
أوما سمعت مقالة فيمن أتى ... بالكبر والعجب الذى بك مردب
حيث المقالة من سميرة إذ أنى ... أسد بن مرة والركاب تكبكب
وقريضة النكاف يظهر غنّة ... فى قوله وفعاله يتأنّب
لو أن خفة رأسه فى رجله ... لحق الغزال ولم تفته الأرنب

قال : فلزمت بيتى وقطعت الخطاب إلى أن عطف علىّ من جود المقام الأشرف، هذا الإنعام الموظف.

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ : وإنما خاطبه الخليفة بهذه الألفاظ الحوشية، والكلمات الغريبة فى العربية، تهكماً به فى حاله، واستخفافاً بقدره فى أقواله وأفعاله، واعتماداً على مقابلته بنقيض قصده، وإعمالاً لما كان سلكه من يعملات رده، فإنه كان كثير الادعاء، يكثر فى حوشيه من حيص بيص ونعاء.

قال ذو النسبين - أيده الله -: قرأت فى كتاب إصلاح المنطق: وقع فلان فى حيص بيص، وأنشد لأمية بن أبى عائذ الهذلى:

قد كنت جراحاً ولوجاً صيرفاً ... لم تلتحصنى حيص بيص لحاص

وقرأت فى (شرح أبيات الإصلاح) لأبى محمد يوسف بن الحسن السيرافى

يقال: قد التحص فلان كذا وكذا إذا نشب فيه. ولحاص فعال من اللحص مبنية على الكسر لأنها صفة غالبة، كحلاق اسم المنية، موضعها رفع لأنها فاعلة تلتحصنى، وحيص بيص فى موضع الحال، وهما اسمان جعلا اسماً واحداً وبنيا على الفتح، كما تقول: هو جارى بيت بيت، ولحاص فاعلة تلتحصنى، ولو كان موضع حيص بيص اسم معرب لتبين فيه النصب، كأنه قال: لم تلتحصنى شديدة لحاص، والحال من لحاص.

والصيرف المتصرف فى الأمور المحتال، والولوج الذى يلج فى الأمور ويتقحم فيها بجرأته. ويريد بذلك كله أنه يصف نفسه بالاحتيال والتصرف.

وقوله: نعاء، فهو معدول عند النحويين عن فعل الأمر نحو تراك ودراك ومناع ونعاء، قال الكميت:

نعاء جذاماً غير موت ولا قتل ولكن فراقاً للدعائم والأصل

أى : أنعهم . يقال : نعيت الرجل أنعاه نعياً، على مثال فعل أشعت موته فى الناس وكان الحيص بيص فى بعض أحيانه يتقلد ، سيفين ويعتقل رمحين، ويعتمّ على طرطور أحمر تشبهاً: فى لوثة أعرابية ، بربيعة أو مضر، يدعى أنه على طبع العرب العرباء، ولم يقرأ كتاباً ولا تعلم تعلّم الأدباء.. ثم يملى من نصّ الجمهرة كثيراً، وهو مناقض لما ادعاه صغيراً وكبيراً.

وخرج الخليفة إلى غير موضع ورجع منصوراً. ثم خرج لقتال الأعاجم متوجهاً إلى همذان لحرب السلطان مسعود، وقد كان الخليفة قطع ذكره على المنابر، ومع الخليفة عسكر كثيف جداً فاجتمعوا على أربع مراحل من همذان، ووقعت الحرب بين الخليفة ومسعود فى عاشر رمضان ، فعدل جماعة من الأمراء الذين كانو مع الخليفة بغير قتال، وأحاط عسكر السلطان مسعود بعسكر الخليفة فأخذوا جميع ما فيه من خيل وبغال، وأثاث وأموال ، وسلاح وأسروا الوزير والأعيان وأرباب الدولة ولم يقتل منهم مخلوق البتة.

وقبض على الخليفة فحمل إلى سرادق مسعود ، وضرب له فى دهليزه خيمة، وأقعد فيها.

ثم إن مسعوداً سار إلى أذربيجان، والخليفة المسترشد بالله فى صحبته أسير موكل به، حتى نزلوا موضعاً قريباً من مراغة.

فلما كان يوم الخميس سادس عشر ذى القعدة (سنة ٥٢٩هـ/ - ١١٣٥م) دخل على المسترشد بالله الى الخيمة التى كان هو فيها، جماعة من الباطنية، قيل إن السلطان المسمى بسنجر أرسلهم لقتله، فهجموا عليه وقتلوه، وقتلوا معه جماعة من أصحابه ، منهم إمامه الذى كان يصلى به.

فأكبر الناس قتلهم للخليفة، فاجتمع الناس وركب السلطان حافياً، وقتل الباطنية كلهم، وحرقت جثثهم بالنار وحمل المسترشد بالله مقتولا إلى المراغة، وخرج أهلها، وقد كشفوا رؤوسهم حفاة الأقدام، فتلقوا جنازته وكسروا المنابر وقبره الآن بها.

قال ذو النسبين ـ أيده الله - : وقد رأيته بها. ولما وصل الخبر إلى بغداد بقتله، يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة اجتمع النساء والرجال وناحوا عليه فى الطرقات، وكسروا منابر الجوامع وأكثروا الشناعات، وسبّوا السلطانين: سنجر بن ملك شاه (وكان يلقب بذى القرنين) ومسعوداً ، أقبح سب من غير مراقبة، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وأياما ، قيل : هى عشرون يوماً. وكان له من العمر ثلاث وأربعون سنة.

ثم صارت الخلافة الى ابنه (١)

أبى جعفر منصور الراشد بالله يوم الاثنين ثامن عشرى ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة (١١٣٥م) عند وصول الأمر العظيم والخطب الجسيم بقتل أبيه فى باب مراغة.

وردّ على الناس الأملاك التى أخذت من أربابها فى المصادرات فصلحت أحوال الناس ، وابتهلوا بالدعاء للسادة بنى العباس.

فجرت المقادير بخدمة أبى العلاء بن الهارونى فحسن للخليفة الخروج على السلطان مسعود، إذ كان ابن الهارونى خائفاً منه وأن يتفق الخليفة مع الملك داود .

وكان صاحب الموصل أتابك زنكى بن آق سنقر مطابقاً للملك داود ، فأظهر الراشد هذا الأمر. وذلك فى المحرم سنة ثلاثين، وجمع جمعاً كبيراً وقبض على السلطان مسعود.

ووصل الملك داود إلى بغداد رابع ومعه أتابك زنكى وخطب لداود بالسلطنة ببغداد، رابع عشر صفر وحمل ابن الهارونىّ الخليفة على سفك دماء أصحابه، ففر عن الخليفة خيار أوليائه وأحبائه، فتنبّه لما دهى به، فأخرج اليهودى إلى الرحبة، وأمر بقتله وصلبه ، وأصبح الناس فوجدو مصلوباً فلعنوه ورجموه.

ثم إن السلطان مسعود ، لما بلغه هذا الجمع، قصد بغداد ونزل بباب الشام فى ثامن من شهر رمضان، وهو فى العساكر الجمة والعدد الكثير. وأخبارهم تطول .

فخرج الخليفة إلى الموصل، وعبر السلطان مسعود إلى دار المملكة بالجانب الشرقى.

فاجتمع الوزير أبا القاسم على بن طراد الزينبى ، وكاتب الإنشاء ابن الأنبارى، وصاحب المخزن أبو الفتوح طلحة يوم الاثنين سادس عشر ذى القعدة سنة ثلاثين، وكتبوا محضراً فيه شهادة جماعة من العدول بما جرى من الراشد بالله من الظلم، وأخذ الأموال ، وسفك الدماء ، وشرب الخمر.

---

(١) انظر: الكامل ١١/ ١٦، ٩٦، تواريخ آل سلجوق ١٨٣ ـ ٢٩٢، مفرج الكروب ١/ ١٣١ ـ ١٣٣.

وذكروا فسقه وعدّوا أفعاله وارتكابه المحارم واستفتوا الفقهاء فى من فعل ذلك، هل تصح إمامته أم لا؟ وهل إذا ثبت فسقه بما ذكر عنه يجوز لسلطان الوقت أن يخلعه ، ويستبدل به من أهل بيته من خير منه طريقة وديناً؟

فأفتى الفقهاء الذين فى ذلك الوقت بخلعه، وفسخ عهده، وحل عقده، والاستبدال به غيره إذا كان بهذه الصفة.

وعرضت هذه الفتوى والمحضر على السلطان مسعود. فقال : هذا أمر قد قلدتكم إياه وأنا منه برئ عند الله.

ثم قال: اختاروا رجلاً من هذا البيت يصلح لهذا الأمر. فوقع الاختيار بوساطة الزينبى أن يولى أبا عبد الله محمد بن المستظهر بالله.

فلما كان يوم الثلاثاء السابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة (١١٣٦م)، حضر السلطان مسعود والجماعة الذين حضروا دار الخلافة فى الدار التى على دجلة، وتعرف بالمثمنة، وأحضر أبو عبد الله، محمد بن المستظهر بالله ولقب بالمقتفى لأمر الله، وعاد السلطان مسعود إلى داره.

ثم فتح باب الدار القائمية، بكرة يوم الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة، فبايعه الفقهاء والقضاء والشهود وأعيان الناس، ثم خلع الراشد وكان مقيماً بالموصل.

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ : وهذه القضية وإن كانت واقعة على ما نقل من هذه الشهادة فقلد ثم جميع الشهود، وشهدوا على غير مشهود.

والعجب من فقهاء ذلك العصر وفتواهم بجواز هذه الشهادة على إمام وقتهم حتى أوجبوا خلعه ونقضوا بيعته. أنسوا أن مثل هذه الشهادة فسق من الشاهد بها؟

وبيان ذلك:

أن الشهادة مبناها على العلم . قال الله - تعالى -،﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾(١). وإذا كانت الشهادة مبنية على العلم فليت شعرى من أين تصح الشهادة عليه بشرب الخمر مالم يكن منه إقرار على نفسه به ؟ فلم ينقل عنه إقرار . وإذا امتنع الإقرار لم يبق طريق إلى الشهادة إلا بالإخبار.

---

(١) سورة يوسف الآية ٨١

وطريق الخبر لا تصح الشهادة من جهته على معنى أن الشاهد يشهد على قول المخبر، فلا تجوز هذه الشهادة.

ثم المخبر يلزمه ما يلزم الشاهد فى بلوغ ذلك إليه ، فإن ادعى حضوره معه فحضوره فسق. والفاسق لا تقبل شهادته.

ثم المعاصى لا تثبت بالسماع والأخبار إجماعاً، فلا تجوز الشهادة عليه بطريق الخبر.

ومن فعل ذلك فقد جرح نفسه فأبطل شهادته، فقد بطل الطريقان طريق الإقرار وطريق الإخبار.

والذى عندى أن ذلك تعصّب يحمّله المتقلد بأئمة الحامل لراية ظلمه، وهو على ابن طراد الزينبى، لعداوة من قبل، معلومة، والعداوة من القرابة مفهومة، ولهذا قيل : إن كيد الأقارب من لسع العقارب.

نعم. أما المظالم فربما أمكنت الشهادة بها. فإن للظلم أمارات، وللمظلوم عليه دلالات. فأما شرب الخمر وارتكاب المحارم فلا تصح الشهادة به أصلاً على ما ذكرناه فى هذه الواقعة.

ونزيد فى ارتكاب المحارم إلزام الشهود بحد القذف مع إبطال شهاداتهم، فإنهم لا يشهدون بارتكابها معاينةً على شروط الشهادة على الزانى فهم قاذفون لا شاهدون، والله يعلم ما تكنّ صدروهم وما يعلنون.

وكتب السلطان مسعود إلى أتابك زنكى بن آق سنقر فى القبض على الراشد وإرساله إلى بغداد، فمنع من ذلك فارس الإسلام زين الدين أبو الحسن علىّ بن بكتكين صاحب إربل. وهذه مكرمة لم يسبق لها زائدة إلى ما جمع من الفضل والطول إذ لم يسلم أحداً من آل الرسول-ﷺ- إلى القتل . وقال له: هو ضيف عندنا وفى كرامتنا وقد كان بالأمس خليفتنا، والله، لا سلّمناه ولو أريقت دونه الدماء، مادامت الأرض والسماء!

فاعتذر أتابك [1] للسلطان مسعود، وقال: إنى أخرجه من ولايتنا، فأرسل إليه أنت عسكراً يقبض عليه فى غير جهتنا، وأعدّ له زين الدين جماعة من الأكراد، فساروا بين يديه على طريق قريبة لا يعرفها من الناس إلا آحاد أو بعض آحاد فوصل مراغة أذربيجان.

وخرج عسكر كبير من جهة السلطان مسعود فرجعوا بصفقة أخسر من صفقة أبى غبشان.

ونزل الخليفة فى تربة أبيه المسترشد بالله بعد أن تلقاه أهلها وولوه أمر بلدهم فأقام بها يسيراً.

ثم ارتحل عنها إلى الرىّ وظن أصحابه أنه يمشى إلى السلطان سنجر، إلى خراسان، فلما قرب من بلاد الباطنية، جرد السيف وأمر جماعة عسكره بقتل من وجدوا من الباطنية وكانوا فى غفلة عن وصوله إلى ولايتهم غير عالمين بما فى نيته من قتلهم ، فقتل منهم جماعة عظيمة. ولم يزل تتقلب به الأحوال، ولا ينال من الدنيا إلا العناء والغربة والترحال.

فلما كان سابع عشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، قتلته الباطنية وهو على باب أصبهان ومعه خوارزم شاه، وكانوا فى خدمة الخليفة بزىّ الخراسانية، فهجموا عليه فى خيمته بعد العصر، وهو فى أعقاب مرض فقتلوه.

وقيل : إنه كان مسموماً. ولما قتل صاح الناس فركب خوارزم شاه والعسكر فقتلوا الباطنية ودفن بشهرستان على فرسخ من أصبهان.

وقد زرت قبره وقرأت عليه سوراً من القرآن.فكانت خلافته منذ بويع إلى أن خلع أحد عشر شهراً وعشرين يوماً.

ثم وصل الخبر فى شوال سنة اثنتين وثلاثين إلى بغداد بقتله، فقعد الناس له فى العزاء ببغداد يوماً واحداً.

---

(١) (أتا) لفظة تركية بمعنى الأب والرجل المسن أو المحترم والسيد أما (إتابك) مربى السلطان، أو أستاذه، وأطلق على ذى الرتبة الكبيرة. ودول الأتابكة الإمارات التابعة فى الأصل للدولة السلجوقية كما فى لغة جغتاى وغيرها.

المقتفى لأمر اللّه (١)

واستقر الأمر للمقتفى لأمر الله

أبى عبد الله محمد ابن الإمام المستظهر بالله . فبويع كما قدمنا، فصحب الأعيان، وعرف الزمان. وكان موفق الأصحاب ، ميمون الركاب.

وفى أيامه مات السلطان مسعود بهمذان سنة سبع وأربعين وخمسمائة.

وقتل أتابك زنكى وهو نائم، قتله بعض خدمه.

وصفت له الدنيا وسعد بوزيره أبى المظفر عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة من ولد الأمير الكبير أبى حفص عمر بن هبيرة، وقد ذكر المؤرخون فضائل جده الذى حازها عون الدين من بعده، منها ما ذكره أبو الطيب محمد ابن إسحاق بن يحيى بن الأعرابى فى كتاب (الفاضل) له، قال العتبى: أشرف عمر بن هبيرة من قصره ذات يوم، فنظر إلى أعرابى قد قصده، وجمله يرقص به الآل: فقال لحاجبه إن أرادنى الأعرابى فأوصله إلىّ. فلما رآه الحاجب سأله عن حاله، فقال : قصدت الأمير. فأدخله إليه، فلما مثل بين يديه، قال: ما خطبك ؟ فقال:

أصلحك الله قلّ ما بيدى ... فما أطيق العيال إذ كثروا

ألحّ دهر أخنى بكلكله ... فأرسلونى إليك وانتظروا

فأخذت ابن هبيرة أريحية، فقال: أرسلوك إلىّ وانتظروا ؟ وكررها مرات، ثم قال: إذا والله لا تلبث حتى ترجع إليهم غانماً، وأمر له بألفى دينار وصرفه.

والآل : السراب.

---

(١) انظر: مرآة الجنان ٣/ ٣٧٩، الكامل ١١/ ٩٦ ـ ١٣٤، تاريخ الخميس ٢/ ٣٦٣ انظر: التبر المسبوك ٥٦.

وقبض الخليفة على جماعة من المتعلقين بالسلطان مسعود، وأخذ جميع ماكان بأيديهم من الإقطاعات، وحشد الأجناد، وأقطعهم البلاد، وخرج الخليفة بنفسه يقاتل من ناوأه، ويقتل من عاداه، وقد هزم غيرواحد، ودفع بنفسه وكذلك وزيره ابن هبيرة حمل على الأعداء عدة حملات. وكان محدثاً عالماً بالصحيح والسقيم آخذاً على يد الظالم آخذاً بيد المظلوم. وتوفى المقتفى لأمر الله ليلة السبت مستهل ربيع الأول وقيل: ليلة الأحد ثانى شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة(١١٦٠م)، وصلى عليه بكرة الاثنين.

ومات بعلة التراقى، فكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وواحداً وعشرين يوماً.

ثم صارت الخلافة الى ابنه المستنجد باللّه (١)

أبى المظفر يوسف. بويع له يوم الاثنين البيعة العامة بعد الصلاة على أبيه ومواراته، فأظهر السيرة الجميلة، وردّ أموالاً كان ابن المرخم الحاكم قد غصبها من أموال المسلمين، فردّها على أربابها، وسجن قوماً ينسبون إلى الظلم، ويخاف بوائقهم، وأسقط مكوساً كانت تؤخذ فى الطرق وغيرها، وأطلق ضريبة الغنم ببغداد، وجميع ما كان السلاطين يتناولونه على طول السنين، وذلك بإشارة وزير أبيه ووزيره أيضاً، المحدث العالم عون الدين بن هبيرة، إلى أن توفى على أجمل أحواله، يوم السبت بعد الظهر ثامن شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة (١١٧٠م).

استعجل منيته بعض مماليكه وهو قطب الدين، بل خارج دائرة المعتدين قايماز برأى ابن صفية النصرانى المتطبب، وكان قد برأ من القولنج والسحج، فأطلعه الخليفة على سر فى جانب قايماز مقلق مزعج. فبلغه النصرانى مرارة ذلك الكلام، ولعن الله كل واش ونمام.

وكان الخليفة قد نحل جسمه، ولم يبق منه إلا رسمه، وكان النصرانى يعالج بدنه بالمرطبات، وينوّمه فى موضع يهب عليه فيه الرياح من جميع الجهات.

فلما أيقن قايماز بالقتل، دبرّ شربة مسمومة على يدى ابن صفية الفسل وأمره أن يسقيها للخليفة ثم يدخله الحمام، فإنه يعجل له الحمام، فحمله عدو الله قايماز إليه، وغلق عليه الأبواب، وأذاقه العذاب، وهو يصيح ويستغيث، لو كان له ملبّ أومغيث حتى هلك بحرّ النار، وقد أحرز عند الله عقبى الدار، ولحق بآبائه الأئمة الأطهار، وهذا جزاء من يحكم خساس العبيد على دولته، ويجعلهم أولى بطانته ودخلته. فكانت خلافته إحدى عشرة سنة وشهراً واحداً.

---

(١) انظر: فوات الوفيات ١/ ١٣٧، العبر ٣/ ٥٢٨ مرآة الزمان ٨/ ٣٥٦، الكامل ١١/ ١٧٣، تاريخ الخميس ٢/ ٣٦٦.

ثم صارت الخلافة إلى ابنه المستضيء بأمر الله (١)

أبى محمد الحسن. بويع البيعة العامة بكرة يوم الأحد تاسع شهر ربيع الآخر، سنة ست وستين وخمسمائة (١١٧٠م) فاستضاءت الدنيا ببيعته وهاجر الناس إلى بغداد لعدله وحسن سيرته، ولاحت أعلام الهدى، وأمن الناس من الردى.

وأمر بإطلاق المسجونين، وكانوا نحواً من سبعمائة رجل. وفرق أموالاً جسيمة حتى عم أكثر الناس فضله، وغمرهم جوده وطوله، وأمر باسقاط الخراج المجدد والضرائب والمكوس وأمر بتفرقة الخلع والثياب النفيسة على أكثر الناس من الأشراف والفقهاء والعلماء والغرباء، فرد الشريد، وأغنى الفقير، وأمّن الخائف، وطيب الله ذكره، وأعلى أمره.

وعادت فى أيامه الخطبة للخلافة العباسية ببلاد مصر بعد انقطاعها مدة من مائتى سنة وخمسة عشر عاماً عند تبلّج صبح دولة بنى أيوب (٢)، الموفين بفضل دولتهم ودولة فضلهم على كل مطلوب، حسب حرىّ، ونسب درّىّ ، الطعن بالأسل أحلى عندهم من العسل:

مستلئمين إلى الحتوف كأنما بين الحتوف وبينهم أرحام

وهم الذين لم يبق فضل فى دولة إلا أدركوه. وكان مبدأ ذلك على يدى الملك المنصور أسد الدين شيركوه. ثم كان تمام الدعوة وكمال الكلمة على يدى السلطان الناصر لدين الله، جامع كلمة الإيمان قامع عبدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين، أبى

(١) انظر: تاريخ مختصر الدول ٤٢١، الكامل ١١/ ١٧٣، ١٢/ ١٦٨ تاريخ الخميس ٢/ ٣٦٦، التبرك ٥٧.

(٢)كانوا من أمراء أتابكة الموصل عماد الدين زنكى وأخلافه، وبدأت علاقتهم بمصر فى سنة ٥٥٩ هـ، ونالوا الوزارة فيها. وهى يوم عاشوراء سنة٥٦٧ هـ توفى الخليفة العاضد فأعلن صلاح الدين حكومته وخطب للخلفاء العباسيين. وتوفى فى ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ فخلف ابنه الأكبر الملك الأفضل، فلم يتنظم له الأمر ولا لأولاده الآخرين فطلب الملك العادل أخو صلاح الدين الأمر لنفسه فتم له سنة٥٩٦ هـ وبويع لابنه الملك الكامل بولاية العهد، فولى بعد أبيه ، ودام الملك فى الأيوبيين بمصر إلى منتصف المائة السابعة للهجرة، وفى الممالك الأخرى إلى ما بعد ذلك ثم زالت دولتهم.

المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين، الذى أهلك طغاة مصر، وأخلق إهابهم ، وأطفأ شهابهم، وخشن أديمهم، ونفر عنهم صاحبهم ونديمهم، فبدّلهم من النعيم البوس، ومن البشر القطوب والعبوس، ومن الإعزاز بالإذلال، ومن الإكثار بالإقلال، فطالما ركبوا السرير، ولبسوا الحرير، وصبت إليهم الكعاب، وانقصفت دونهم الكعاب، ومنهم معزهم معدّ ، ولم تكن جنوده تعد، ولا لما أوتيه كان حد، من كل ما يسعد فيه جد، وينتضى لمقتناه حد، وقد أجمع المؤرخون على أنه لم يكن فى زمنه ملك أرفه عيشاً من عيشه، وعلى أن لم يطأ الأرض بعد جيش الإسكندر جيش أكثر عدداً من جيشه وهو الذى شبهه محمد بن هانىء وقرنه بتّبع الأقرن، حيث شاهد أمثال الرعان تمشى على الأرض من جيشه الأرعن، وعاين من أوليائه المجرعين لأعدائه كؤوس العلاقم، أمثال الأسود على صهوات الوعول مجتابى جلودالأراقم، وقد أشكل مكانه عليه لاختلاطه بعسكره فى الزىّ المشار إليه، فرفع عقيرته فى ذلك الجمع بما يدخل على القلب من غير استئذان من باب السمع:

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر ... وأمدّكم فلق الصباح المسفر

وجنيتم ثمر الوقائع يانعاً ... بالنصر من ورق الحديد الأخضر

من فيكم الملك المطاع كأنه ... تحت السوابغ تبّع فى حمير؟

فترجل عن صهوات الجياد عندما وصل إلى هذا البيت جميع الجنود، وأوموا إلى صاحبهم بالسجود، فدخلوا بلاد مصر بالأبطال الكماة، والأبسال الحماة، فدوّخوا البلدان، وذلّ كل ملك لهم ودان.

وكانت لهم أيام مأثورة، ومواقف منظومة ومنثورة. غير أنهم تمذهبوا بمذهب الباطن الباطل، وتحلّوا من اعتقاد التعطيل بالاعتقاد العاطل، وقالوا بتناسخ الأجساد والحلول والاتحاد، وأتوا من شنيع الأقوال الفادحة فى المعاد، بصريح الإلحاد . واحتقبوا بالكفر معنى واسماً، وتنوّعوا فى مظالم العباد، وقد خاب من حمل ظلماً.

وأملى الله لهم ليزدادوا إثما، فملكوا مائتى عام وخمسة عشر عاماً.

ثبت بإجماع وصحت به متون متواترة وأسانيد أن رسول الله - ﷺ- قال : أن الله - تعالى - ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته. ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(١).

فغشيهم من الله يوم عصيب، وقدر مصيب. فخذلهم الأصحاب، وضاقت عليهم الرحاب، فعثر الجد، ونبا الحد، وقلب المجن ظهره، وأنكر الشقى دهره، وذلك على يدى السلطان الناصر لدين الله صلاح الدنيا والدين، كهف المهتدين.

فأذعنوا له أى إذعان، وساروا فى مثل الأسير العان، فسلبهم المنة والأيد، وبدّلهم بهما الغل والقيد، وأقام منار الإسلام بعد قعود، وأعاد الشريعة المحمدية مورقة العود، وأطلع فى سماء الدين كواكب السعود، ورفع الراية العباسية بيد الخلافة، وواصل الحق وقطع دابر من يظهر خلافه، وأعطى القوس باريها، وكان السابق إلى الخيرات ومباريها.

وعلم الله باطنه الذى صحّ فوافق ظاهره، فجعل حزبه المنصور، وفئته الظاهرة، وجمع له بين رفع راية الخلافة، وخفض راية الإشراك، ووقعت طيور ملوك الكفر من معاركه المشهورة فى أوثق الإشراك، ففتح وفتك، وسفح وسفك، وأطلق عنان غزوة فى ميادين الأقاليم، وقطع بحد سيفه حدود أصحاب الأقانيم.

وكان حد حسامه مفتاحاً للبيت المقدس، ومصباحاً للمسجد الأقصى المشيد على التقوى والمؤسس، فأعاد الإسلام بعد ذهابه، وردّ النصل فى قرابه، والحق فى نصابه.

وكل ذلك بتدبير أخيه السلطان الملك العادل، المحامى عن الدين والمناضل سيف الدنيا والدين، سيد الملوك والسلاطين، أبى بكر محمد بن أيوب خليل أمير المؤمنين، واستعمال آرائه، وإعمال مطيّة سياسته التى لا يرجع راكب ظهر سعادتها إلى ورائه، فرأيه يفتح مغلقات الأمور، ويشرح منقبضات الصدور، ولا جرم أنه قام بعده بما

(١) سورة هود الآية ١٠٢

قعدت عنه ملوك الدول، وأربى بتأييد تدبيره وتدبير تأييده على غاية الأمل . ولما وصل الخبر بذلك إلى بغداد.

فى شهر ربيع الأول سنة سبع وستين وخمسمائة زينت بغداد، وضربت القباب على كل روض أريض، ومسرح عريض، ودوحة غيناء، وروضة غنّاء ومذانب ومدافع، ومسارب ومرافع، فى جمع قد اتسق اتساق النظام، وتكنف بالإجلال والإعظام، والأنس يوسعهم طياً ونشراً . حتى أقاموا عشرة أشهر وعشرا.

وفى يوم الأربعاء رابع عشر شوال من سنة سبع وستين مات السلطان نور الدين فى قلعة دمشق ودفن بها، وكان ملكاً صالحاً ظاهر الدين، والتمسك بذوائب اليقين، بنى المساجد والمدارس والرباطات، وفتح الأمصار وأعلى الكلمات، وغزا فى الفرنج عدة غزوات، نفعه الله، وجعل ذلك له ذخراً، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، ووصل ولده الملك الصالح إسماعيل إلى قلعة حلب يوم الجمعة مستهلّ المحرم سنة سبعين وخمسمائة وكان ملكاً صالحاً عند اسمه، جارياً على عهد أبيه فى الدين والخير ورسمه.

ولما ولى الخليفة المستضئ بأمر الله طلب قاتل أبيه قايماز المذكور ففرّ منه إلى ناحية همذان، فأمر العامة بنهب داره فنهبت فى الحين، وأقام فى الخلافة عشر سنين تنقص أربعة أشهر. وكان ضئيل الجسم، كثير الحلم، عزيز العلم، جبر الكسير، ووهب الأكسير، وآنس الغريب، وواسى البعيد والقريب، فكم له من منقبة تتلى وتنسخ ! وفضيلة محكمها على الأيام لا ينسخ! وقد يكفى من التصريح إيماء، ويغنى عن الصريح ماء. توفى ليلة الأحد ثانى ذى القعدة من سنة خمس وسبعين وخمسمائة[1] (١١٨٠م).

(١) ذكره فى تأريخ الدولة الأتابكية ص ٣٢٦ وفى الكامل ج ١١ص ١٨٧ وابن أبى عذيبة ج ٤ ص ٣٧٠.

فصارت الخلافة بعده
لابنه الإمام الناصر لدين الله[1]

أمير المؤمنين، أبى العباس أحمد بن الإمام أمير المؤمنين المستضىء بالله أبى محمد الحسين بن الإمام أمير المؤمنين المستنجد بالله، أبى المظفر يوسف بن الإمام أمير المؤمنين المقتفى لأمر الله ، أبى عبد الله محمد بن الإمام أمير المؤمنين القائم بأمر الله ، أبى جعفر عبد الله بن الإمام أمير المؤمنين القادر بالله أبى العباس أحمد بن الشريف الأمير إسحاق بن الإمام أمير المؤمنين المقتدر بالله ، أبى الفضل جعفر بن الإمام أمير المؤمنين المعتضد بالله، أبى العباس أحمد بن الموفق بالله الناصر لدين الله ولى عهد المسلمين، أبى أحمد طلحة بن الإمام أمير المؤمنين المتوكل على الله، أبى الفضل جعفر بن الإمام أمير المؤمنين المعتصم بالله أبى إسحاق محمد بن الإمام أميرالمؤمنين الرشيد بالله ، أبى جعفر هارون بن الإمام أمير المؤمنين المهدى بالله، أبى عبد الله محمد بن الإمام أمير المؤمنين المنصور، أبى جعفر عبد الله بن الإمام العالم أبى عبد الله محمد ابن الإمام العالم السجاد، أبى محمد على، كذا كناه الزبير.نسابة قريش. وذكر الهيثم بن عدى فى تأريخه أنه يكنى أبا عبد الله. والهيثم متهم بالكذب عند العلماء. وعلىّ هذا هو ابن بحر العلم الذى لا تكدره الدلاء، ولا يفنيه الاستقاء، ولا ينتهى إليه الانتهاء ، أبى العباس عبد الله بن سيدالوادى وساقى الحجيج وحليم البطحاء، الذى فاق الناس طولاً وطولاً، ووسعهم عقلاً وعدلاً الذى استشفع به عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عام الرمادة إلى الملك الرحمن، فسقوا فى الحين حتى قلّصوا المآزر وخاضوا فى الغدران، أبى الفضل العباس بن شيبة الحمد الفياض، الذى كان يرفع من مائدته لجميع من حضر فى مكة من الرجال والنساء والوحوش فى رؤوس الجبال ولطير السماء، ذى المناقب الشهيرة ، والأحساب المنيرة، حافر زمزم بأمر الله الأعظم، أبى الحارث عبد المطلب ، وفيه يجتمع مع رسول الله - ﷺ-:

هذا والنسب الذى لايمترى ... فيه وليس يجائز أن يجهلا

---

(١) انظر: الكامل ١٢/ ١٦٩ ـ ١٧٧، نكت الهميان ٢٣٨، تاريخ الخميس ٢/ ٣٦٩، تاريخ مختصر الدول ٤٢٢، السلوك للمقريزى ١/ ٢٠٢.

بويع له البيعة العامة يوم الأحد ثانى ذى العقدة المذكور. وولد يوم الخميس العاشر من رجب الفرد سنة أربع وخمسين وخمسمائة. وولى الخلافة وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وولد له وهو ابن ست عشرة سنة، وفقه الله لصالح الأعمال، وسدده فى الأقوال والأفعال ، بمحمد وآله خير آل.

وبويع له بولاية العهد فى يوم الجمعة ثانى عشرين من شوال من سنة خمس وسبعين وخمسمائة (١١٨٠م) وبويع بالخلافة يوم الأحد مستهل ذى القعدة من سنة خمس وسبعين المذكورة. وأخذ الأمر حقاً وقوة، وفتح البلاد طاعة وعنوة، وطبقت دعوته جميع الآفاق، وطلعت شمس كلمته باهرة الإشراق، وأوقع بوزراء السوء على الإطلاق، وقام بما عليه من العهد والميثاق.

قال ذو النسبين- أيده الله -: وقد دخلت بغداد مراراً، واستأذنت سدة الخلافة الناصرية جعل الله الأقدار لها أنصاراً، فى الرواية بها وبواسط القصب فأذن لى سراً وجهاراً، فامتثلت الإذن وقطعت من كبار المصنفات أسفاراً، واستضأت من علوم السنّة بما يعد مع الصبح إشراقاً وإسفاراً.

فحقه أول واجب يؤدى، وأوجب حق يبدّى، فهو الخليفة الإمام الأهدى، صنو الغمام الأسكب الأندى ، مليك الأمة الذى جاوز ملكه المدى، واحتاز الملوك عبدّى ، وتبدّى علمه نوراً على الهدى، فعلم وهدى، وغمر بالجدى، وحكّم المناضل فى هام العدى، وحكم للبأس تارة وطوراً للندى:

ترتاح أندية الندى والبأس ... من ذكر مولانا أبى العباس
نجل الخلائف وابن عمّ محمد ... خير البرية من جميع الناس

قال ذو النسبين- أيده الله -: وبعد هذا الشرف الفخم، والملك الضخم، لم ينجهم من الموت شرف بنى هاشم، ولا وقى عنهم كل عاد وغاشم ، ولا وقاهم أيضاً الراجل والفارس، ولا الحامى والحارس، ولا المواكب والمضارب، والنجائب والجنائب، ولا العساكر والدّساكر [1] والمقانب والكتائب، لما نفذ العمر والوفر ، ودار

(١) الدساكر جمع دسكرة وهو بناء كالقصر حوله بيوت. والمقانب جميع مقنب. والمقنب الجماعة يغزى بها والكتائب جمع كتيبة وهى ما تجمع فيه ما يحتاج إليه للحرب وأصل الكتب الجمع. (هامش من إملاء المصنف).

السماك والغفر ، وهذه عادة الله - تعالى- فى الأمم السوالف، كان آخرهم إلى المهالك والمتالف.

ولما رحلت فى طلب العلم الى البلدان، من بلاد بنى عبد شمس إلى بلاد بنى عبد المدان، ودخلت خراسان، وعاينت ملك بنى ساسان، وسلكت على إقليم طوس إلى مدينة طابران، وقصدت الراوية بأسفرايين وانحدرت إلى جرجان، وركبت البحر إلى بلاد مازندران، وقرأت بمدينة آمل وهى طبرستان، قاعدة ملك الأرض كلها الضحاك الذى عاش ألف سنة فى عدوان وطغيان، إلى أن قتله الملك العظيم أفريذون ابن أفقيان.

ووصلت بلاد قهستان إلى ساوة إلى آوة إلى مدينة قم، إلى قاسان، إلى المدينة الكبرى أصبهان، موضع عبادة النيران ، ومراقبة القرآن ، والكفر بالرحمن، فى أول الزمان وعبرت منها إلى اصطخر قاعدة النبى سليمان، وأخذت من طريق خوزستان، إلى طريق حلوان، وقاسيت من الغربة أصناف الألوان، ومررت على مدائن كسرى أنو شروان، وزرت بها قبر صاحب النبى- ﷺ- الزاهد العابد المعمرّ سلمان، وأعملت منها السير والإغذاذ إلى مدينة بغداد، فنظرت إليها معالم وربوعاً، وأقمت بها مرة عاماً ومرة أسبوعاً وأسبوعاً ، وأنا أبدىء فى ندائهم وأعيد، والترب قد علا على منازلهم والصعيد، وأسأل عن الخلفاء الماضين وأنشد، ولسان الحال يجاوبنى وينشد:

يا سائل الدار عن أناس ... ليس لهم نحوها معاد
مرّت كما مرّت الليالى ... أين جديس وأين عاد؟

بل أين أبو البشر آدم الذى خلقه بيده الكبير المتعال؟ أين الأنبياء من ولده والإرسال ، أهل النبوة والرسالة، والوحى من الله ذى الجلالة ؟ أين سيدهم محمد الذى فضله عليهم ذو العزة والجلال، وجعله شفيعهم مع أمته والناس فى شدائد الأهوال؟

أين القرون الماضية والأجيال ؟ أين التبابعة والإقيال ؟ أين ملوك همدان؟ أين أولو الأبلق الفرد أو غمدان؟ أين أولو التيجان والأكاليل؟ أين الصيد والبهاليل؟ بل أين

النمارذة وأكبرهم نمروذ إبراهيم الخليل؟ أين الفراعنة ومن هو بالسحر عليم، الذين منهم فرعون موسى الكليم؟ أين ملك الهذبانية هدد ابن بدد الكردى، الذى لم يكن غدره بمفيد له ولا مجدى، وقد أخبر الحق جل جلاله عنه أنه كان يأخذ كل سفينة غصبا؟

وزعم المؤرخون أنه كان أيضاً يملأ القلوب رعباً، ويسوم أصحابه قتلاً وصلبا، مع الطمع فى المال وعدم النظر فى عقبى المآل.

أين دارا ملك الفرس؟ واين ملوكها وعدلها واين عدولها، أين دار بن دارا ابن بهمن؟ أين الاسكندر بن فليبس اليونانى المجدونى الذى غلبه وملك بلاده فى ذلك الزمن، وأطاعته جميع ملوك الأقاليم . وقدر الله به امتحان ذلك تقدير العزيز الحكيم؟ أين هرقل وقيصر ، غلبهما من الموت الأسد القسور، بعد أن أخرجهما من بلادهما أمير المؤمنين أبو حفص عمر، لما ظهرت الملّة الحنيفية كما ظهرت الشمس وبدا القمر؟ أين أولاد جفنة وملوك غسان؟ أين مماديح زياد وحسان؟ أين هرم بن سنان أين الملاعب بالسنان؟ أين أولاد مضر بن نزار بن معد بن عدنان؟ أين بنو عبد المدان؟ أين أرباب العواصم؟ أين قيس ابن عاصم؟ أين العرب العرباء الأمة الفاضلة، والجماعة المناضلة، أولو البأس والحفاظ وذوو الحمية والإحفاظ، حيث الوفاء والعهد، والنجاء والوفد، إلى علو الهمم، والوفاء بالذمم، والعطاء الجزل والضيف والنزل، وهبة الآفال والنزل، وأنها لا تدين عزاً ولا تنقاد، ولا ترام أنفه ولا تقاد، أين قريش المعروفون فى الجاهلية بالحى اللقاح، والشعب الرقاح؟ أين الماضون من ملك بنى أمية، ذوو الألسن الذلق، والأوجه الطلق والحمية؟ أين خلفاء بنى العباس ابن عبد المطلب الذين شرفهم بالأصالة وليس إليهم بالمنجلب، ذوو الشرف الشامخ، والفخر الباذخ، والخلافة النية الرضية، والمملكة العامة المرضية؟

بلغتنا (والله) وفاتهم ، ولم يبق إلا ذكرهم وصفاتهم، قبض ملك الموت أرواحهم قبضا، ولم يترك لهم حراكاً ولا نبضاً، ومزق الدود لحومهم قدداً، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً، إلا ما كان من أجساد الأنبياء، وقد تكلمت على هذا

الحديث وأبنت أنه من الصحيح لا السقيم، وخرجت طرقه فى كتاب العلم المشهور بعون من العزيز الرحيم.

فما أبعد المرء عن رشده وما أقصاه ! كم وعظه الدهر وكم وصاه! يخلط الحقيقة بالمحال، والعاطل بالحال، ولا توبة حتى يشيب الغراب، ويألف الدم التراب. فيالهفى لبعد الدار وانقضاض الجدار، وأنت هامة ليل أو نهار، وقابل من عمرك على شفا جرف هار، تقرأ العلم وتدّعيه ، ولا تفهمه ولا تعيه، فهو عليك لا لك، فأولى لك ثم أولى لك!

أما آن لليل الغى أن يتجلى إحلاكه، ولنظم البغى أن تنتثر أسلاكه، وأن يستفظع الجانى جناه، ويأسف على ما اقترفه وجناه، وأن يلبس عباءة وبتاتاً، ويطلق الدنيا بتاتاً ، ويفر منها فرار الأسد ، ويتيقن أنه لابد من مفارقة الروح للجسد؟!

نبهنا الله من سنات غفلاتنا ، وحسن ما ساء من صنائعنا الذميمة وفعلاتنا، وجعل التقوى أحصن عددنا وأوثق آلاتنا.

اللهم إليك المآب، وبيدك المتاب، وقد واقعنا الخطايا، وركبنا الجرائم رواحل ومطايا، فتب علينا أجمعين، وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين، وصلّ على سيد ولد آدم محمد شفيعنا يوم القيامة. وصاحب الحوض المورود والمقام المحمود والكرامة، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه أهل الرضوان المنتجبين، وسلام عليه وعليهم إلى يوم الدين.(*)

(*) هذا أخر المخطوطة والمطبوعة.

الفهرس

الموضوع — الصفحة

مقدمة المحقق ٥
مقدمة المؤلف ٧
أول الخلفاء العباسيين ١١
أبو العباس عبدالله ١١
أبوجعفر المنصور ٢٨
المهدى ٣٤
الهادى ٣٨
هارون الرشيد ٣٩
الأمين ٤٥
المأمون ٤٨
المعتصم ٦١
الواثق ٦٩
المتوكل ٧٥
المنتصر ٨٠
المستعين ٨١
المعتز ٨٣
المهتدى ٨٤
المعتمد بالله ٨٥
المعتضد بالله ٨٦
المكتفى ٨٩
المقتدر ٩١
القاهر ١٠٥

obeikandl.com

الراضى ١٠٦
المتقى ١١١
المستكفى ١١٣
المطيع لله ١١٤
الطائع ١١٧
القادر ١٢٠
القائم ١٢٧
المقتدى بأمرالله ١٣٣
المستظهر بالله ١٣٤
المسترشد بالله ١٣٥
الراشد بالله ١٤٠
المقتفى لأمر الله ١٤٤
المستنجد بالله ١٤٦
المستضئ بأمرالله ١٤٧
الناصر لدين الله ١٥١

obeikandl.com

obeikandl.com

رقم الايداع	٢٠٠٠ - ٩٣١٠
الترقيم الدولى	977 - 5250-82.- X

obeikandl.com

obeikandl.com